خالد محمد خالد



نحن البشر

الناشر

المقطم للنشر والتوزيع


نحن البشر

ظهرت الطبعة الأولى
من هذا الكتاب فى ديسمبر ١٩٥٩
الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار المقطم للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩
فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣
email: elmokatam@hotmail.com

خالد محمد خالد

نحن البشر



الإهداء

إلى الذين يحبون الجنس البشرى
ويريدون له الحرية، والعدل، والسلام

موضوعات الكتاب

مقدمـــة

أجمل ساعات حياتنا .. تلك التى تغشانا فيها سَكِينة المحبين الوُدَعاء ..

وأوضأ ساعات تفكيرنا.. تلك التى نفكـــر فيـــها تفكيرا موضوعياً.. نتفوق فيه على الهوى والغرض.

وخير ما نأخذ من الماضى ـ العبرة ..

وأوثق ما يربطنا بالمستقبل ـ الرجاء، والمثابرة .

وهذه الصفحات، ثمرة خواطر مُباركة..أفاءت عليها المحبة.. وتنحَّى عنها الغرض.. وتلقَّت من الماضى دَرسه.. وحَمَلها إلى المستقبل شوق حميم، ورجاء مُثابر..

وكاتب هذا الكتاب يؤمـــن أن العـــالَم قريتُـــه..

والبشريةَ أسرتُه.. ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنَّ على رأس واجبات الإنسان الـــذى أذِن الله لـــه أن يُفكِّـــر، ويكتب ـ واجبًا جليلا بقدر ما هو محتوم.. واجبًا يدعـوه إلى الاهتمام بمشاكل العالم، كما لو كانت مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها، والتعبير عنها بنفس الحرارة والـــولاء اللَّذين يتناول بـــهما مشاكل وطنه، وذاته..

وحين همت بكتابة هذه الصفحـــات، لم أســـأل نفسى: إن كانت قد فرغَت من مشاكلنا نحن، حتى تُولى وجهها شطر مشاكل العالم..؟

لم أسألها هذا السؤال؛ لأنها كانت قـــد ارتفعـــت، ورفعتنى معها إلى المستوى الذى نُدرك عنـــــده وَحـــدة المشاكل.، والذى أبصرنا فيه حقيقة الوضع الإنســـانى فى هذه الأرض.. وعرفنا المفهوم السوِىَّ لكلمة "نحن" .

فـــ "نحن" هذه ليست فى التحليل النهائى لها ســـوى سكان هذا الكوكب جميعًا.

وأنت، وأنا ـ إنما نبحث مشاكلنا "نحن" حين نُديـــر

خواطرنا على المشكلة الإنسانية بأسرها..

* * *

إن الحرب العالمية الأولى، لم تُعلن من بلادنا.. ولم نُعلنها نحن ولم يكن لنا فى أسبابها دور.. ومع هذا؛ فقد كنا نُساق إليها كارهين.. !

والحرب العالمية الثانية، لم نُعلنها، ولم نُستَشَر فيها.. ومع هذا؛ فقد تساقطت قنابلها فوق مدننا وقُرانا، وسُخرت لها مطاراتنا، وموانينا، ومواصلاتنا، وخيرات بلادنا.

ولقد قمنا بتأميم قناة لنا، وتقع فى بلادنا، فإذا العالم كله يشتعل، وكأن القناة تخترق كل بيت فيه..!

وهكذا، فنحن لا نذهب بعيدا عن أنفسنا، حين نقترب من العالم كله، ونعيش بوعينا بين مشاكله.

* * *

ولقد انتهيت فى هذا الكتاب إلى أن مصادر التخلف والتمزق فى عالمنا هى:

ـ التجارة، التى تحولت إلى رأسمال يريد أن تكون له الكبرياء فى الأرض ..

ـ الأحلاف، التى تقوم على نُشدان المغانم الظالمة وتحشُد القُوَى لحروب دائمة ..

ـ النظام الطبقى فى الكيان الدولى، حيث ينقسم العالم إلى "دول كبرى" لها كل شىء.. و"دول صغرى"ليس لها من الأمر شىء..

ـ انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية التى كان عليه أن يحرسها ـ إلى المآرب الخاصة،التى كان عليه أن يرفضها.

ولقد استهديت بالتاريخ... ولم أصنع ما صنعه القاضى التركى القديم الذى حكم بالإعدام، ثم قال: والآن نسمع الشهود ...!!

أجل.. لم ألزم نفسى أحكامًا مُسبَقة.بل ذهبت أقرأ التاريخ واستقرئ حركته، حتى إذا انتهيت من الجولة التى رأيتها كافية ـ وجدتنى أخرج بالنتيجة التى حدثتكم

عنها، والتي سترونـــها مبسوطة على صفحات الكتاب .

* * *

ولم يكن من العسير بعد كشف هذه القُوى المثبطـة، أن نـــهتدى إلى العلاج.؛ فالآفة ماثلة فى أن بعضنا يـرى العالم أضيق من أن يتسع له وللآخرين.. ومن ثَم فـــهو يريد أن يعيش وحده.. جاعلا نَهج حياته: "هذا كلـــه لى"..!!

وهذا سلوك ظالم، ومستحيل أيضًا.

فالعالم عالمنا، و"هذا كله.. لنا كلنا"..

ولابد من إدراك هذه الحقيقة.

بيد أن ترك هذا الإدراك للأريحية الخاصة عمل غـــير مُجد. ولابد من أن تُصاغ فى مبدأ، وفى قانون .

والمبدأ، والقانون ـ كالماء.. يتلون بلون إنائه . فـــإذا وَقَعا تحت وصاية دولـــة، أو دُول، عـــادت الأخطـــاء مُضاعفة .

من أجل هذا، ينبغى أن يحرس العالم كله هذا المبـدأ،

وهذا القانون.

ولكن كيف تتم المحاولة، وكيف تبدأ..؟

تبدأ بأن يُنظِّم العالم نفسه فى شكل قانونى، يُزكى انتظامه فى النطاق الإنسانى العميم .

ثم...

ثم ماذا..؟؟

معذرة، فقد نسيت أنى أكتب مقدمة.. وكدتُ أستطرد. حتى لكأنى أُعيد تسطير الكتاب من جديد..

فليكن هذا حَسبنا.

ولأترك صفحات الكتاب تروى بقية الحديث.

خالد محمد خالد





قَريتُنـــــا هذه ..









فى قديم الزمان، كان رجل فى نضرة شبابه، يمتطى صهوة جواد جَسُور، يقطع الأرض وثبًا من الشرق إلى الغرب ـ يغزوها ويفتحها .

كان اسمه ـ"الاسكندر" ..

وكان شعاره ـ"العالم امبراطوريتى"...!

وذات يوم، مات كما يموت الناس. وسكنت أعلامه الخافقات.

ومضت عشرات القرون ...

ووفد على الدنيا رجل آخر ـ قطع الأرض وثبا، لكن لا غازيًا ولا فاتحا.. بل باحثا عن المتعبين،

والمستعبدين ـ يحطم أغلالهم، ويفكّ إسارَهم، ويلقى إلى أفئدتهم بكلمة السِّر؛ فإذا هم أحرار منطلقون .

كان اسمه ـ "توم بين" ..

وكان شعاره ـ "العالم قريتي" ....!

* * *

كان "الاسكندر" يحمل سيفًا.

وكان "بين" يحمل قلمًا..

كان "الاسكندر" سليل سادة فاتحين ..

وكان "بين" ممثل البسطاء الكادحين ..

كان"الاسكندر" أيام كان التاريخ طفلا يحبو. أو مراهقا يلهو.

وجاء"بين" والتاريخ يُشارف رُشده .

وعلى الرغم من أن كِلا الشعارين ـ"العالم امبراطوريتي"، و"العالم قريتي"ـ قد هتف بهما رجلان من الناس ـ إلا أنهما لم يكونا شعار الرجلين وحدهما.. بل كانا شعار عصرين، ومرحلتين من التاريخ

بينهما تباين كبير.

فاتجاه التاريخ، وروح العصر فى أيام "الاسـكندر" تمثلا فى نزوته تلك.. أن يكون العالم امبراطوريته.

واتجاه التاريخ، وروح العصر فى أيام "توم بين"ـ تمثلا فى إيمانه المضىء.. بأن العالم قريته .

روح العصر ـ أيام "الاسكندر"، كان شديد الولَـع بالبطل الفرد. عميق الاحترام لحق الفتح ، وقوة السيف..

وروح العصر ـ أيام "توم بين"كان قد فتح عينيـه على بطولات الجماهير، وفتح قلبه وعقله لحق الإنسـان، وكرامة"الحياة"..

وهكذا نرى"حركة التاريخ" فى يوم، تحمل السـيف وتشيد القلاع.. وفى يوم آخر، تحمل الفأس، وتتعـهد المزرعة..!

وهى لا تصنع هذا عفوًا، ولا اعتباطـا.. بل وَفـق قوانين تقودها وتـهديها، وتمضى بـها خـلال تغـير صاعد لا يعرف النكسة ولا الوقوف ..

لقد جاء فى عصر "العالم قريبتى" وفى العصور التاليـة له، مـن أرادوا أن يرفعـوا الشـعار القـديم"العـالم امبراطوريتى".. فهل كان ذلك يعنى أن حركة التـاريخ أخطأت ميقاتـها..؟؟

كلا.. ولقد كانت صيحة "يبن"،"العالم قريبتى" فجرًا صادقًا لمراحل جديدة فى تاريخ البشر.. مراحل ستشـهد كفاح الإنسان العظيم من أجل بعث"الإخاء الإنسـانى" بعثاً واضحاً، أكيدا.

وليس معنى محاولة الماضى التشبُّث بأرضه وسلطانه، أن التاريخ يريد أن يرجع إلى الوراء .

لهذا، سار مبدأ "العالم قريبتى" كانسًا من طريقه كـل الرواسب وجميع الفُلُول والمخلَّفـات، منتصـرًا علـى المحاولات الكثيرة المضادة له.: تلك المحاولات التى قـامت قوية، وأُخمدت صاغرة..!

"العالم قريبتى" ـ عنوان عالم جديد إذن، بزغ فجـره من زمان .

ولقد آن لجيلنا أن يدرك هذا جيدا؛ حتى تخلُص لــه الحياة وارفة.. عادلة .. آمنة .

وآن لكل"فرد" من البشر أن يحمل تبعاته تجاه هــذا الإدراك.

لم يعد من حق أحد أن ينسحب إلى داخل نفســه، ويقول: "ماذا أكون فى هذا العالم"..

ولا من حق أى شعب أن يفعل ذلك .

فكل فرد، مهما يبد متواضع الشأن .

وكل شعب مهما يكن محدود القـــدرة، مغمــور المكانة. أقول: كل فرد، وكل شعب، هو العالَم بأسره..

وأى شعب مغمور قابع فى أقصى مجــاهل الأرض.. وأى فرد، لا يرى نفسه شيئاً مذكورا ـ لا يدرى أحــد ماذا يكون غدا، شأنــهما وشأوهما .

إننا فى عصر الناس.. عصر البسطاء.. عصر الرجــال العاديين.

وبين عشية وضحاها ـــ يقفز إلى مقدمة الصفــوف

شعب كان قبل قفزته بأيام، مستعبدا مَهيضا..!

ويعلو الرءوس الشامخة، رجل كان قبل عُلُوِّه نكـرة مغمورا، لا تقع عليه العين فى زحام الحياة ..

وكم كان "هتلر" سيقهقه ويسخر، لو تقدم منـه أحد الناس ـ أيام كان يعمل ـ نقاشا ـ وقال لـه: أيـها النقاش المسكين. اعمل لسلام العالم ما استطعت..؛ فـإن سلامه رهن بمشيئتك وسلوكك..

أجل.. كانت هذه النصيحة لو حدثـت، سـتثير سخرية هتلر، وهو يلوِّن جدار الغرفة بفرشاته لقاء قروش معدودات.. وكانت تستوجب الرثاء لقائلها، وتدمغـه بلوثة العقل ..!

ومع هذا؛ فما كان شيء يمثل الحق والواقع مثلمـا تمثله هذه الكلمات .

ذلك أن هتلر "النقاش" لم يبق "نقاشا" ـ بل حملـه تيار الحوادث إلى ذروة الحكم فى بلده "ألمانيا".. وجـاء يومٌ، أمسك فيه بمصاير العالم كله.. وكـانت مشـيئته

وسلوكه، هما اللذان حددا موعـــد الحـــرب، وســاعة الدمار.. !!!

وكذلك تحول الشعب الألمانى الذى كان مصفـــدًا بأغلال "فرساى" تحول إلى دولة قــاهرة، آمــرة.. وإلى "ترسانة" كبرى تروع العالم أجمع بما تلقيـــه إلى بحــاره، وأرضه، وسمائه، من بوارج، ومدافع وأساطيل..!!

كل "فرد" إذن، له خطره ..

وكل" شعب" إذن ، له دوره..

وكلنا ـ نحن الناس العاديين ـ لنا قيمتنـــا فى هـــذا العالم، ولنا دورنا الأكيد فى بقائه عالمــــا صالحــــا، ووطنـــا طيبًا..

وليس ذلك؛ لأن أيــا مِنا، قد يمسك غدًا بمصـــاير الأمور فحسب.. بل ولأننا ـ نحـــن النـــاس العـــاديين ـ الخالقون الحقيقيون للحياة الجاعلون لها معنى.. ومـــن ثم، فنحن المسئولون الأولون عنها، وعن مستقبلها ..

ونحن ـ الناس العاديين ـ نُكوِّن الرأى العام الذى بلغ

فى كل الأرض أشده واستوى ـ وأضحى قـــادراً علـــى فرض كلمته واحترامه .

لم يعد فى عالمنا وينبغى ألا يكون فى عالَمنا مكــــان لــ"لويس" آخر يقول "أنا الدولة .. والدولة أنا"...

ولا حاكم من طراز "جيزو" يقول:"كــــل شــىء للشعب.. ولا شىء للشعب".!!

وكذلك،لا مكان لإسكندر آخر يقـــول:"العـالم امبراطوريتى"

لا مكان فى عالمنا اليوم لغير العاملين من أجل الحـق، والخير والحرية، والعدل، والسلام.

ولقد أذن الله سبحانه للذين كانوا يُســـتضعفون فى الأرض أن يرثوا مشارقها ومغاربها .

ومنذ عهد بعيد، والتاريخ يولى وجهه شطر هـــذا المصير الإنسانى الجليل، ويمضى فى خط متعـــرج، قــد ينحرف أحيانا ذات اليمين أو ذات الشـــمال.. لكنـــه سرعان ما يعود إلى طريقه اللاحب، ووجهته الصــاعدة

الصامدة ..

والكيان البشرى متجه صوب توحيد عالمه، وتحويلـه إلى قرية متلألئة بأضواء الحـــب، والحنـــان، والتقـــدم، والعظمة ..

أجل.. لقد انعقد عزمه على عالم جديد. يتفـــــوق على ضعفه ويجاوز نفسه.

عالَم ..

الإخاء فيه طبيعة، لا رغبة ..

والسلام فيه ضرورة، لا صفقة..

والحرية فيه حق، لا منحة ..

والقوة فيه عدل ، لا سطو..

والسعادة فيه مشاع، لا امتياز..

وصحيح أننا نشق طريقنا وسط زحمة هائلـــة مـــن المصاعب والتناقضات، والأزمات.. لكننا سنبلغ المرفـــأ حتما، وسنحقق كل اجتراءاتنا الباسلة الباهرة .

وإن قصة الزحف الطويل، والجليل ـ الذى ســـاره

نوعنا، وقطعته أجيالنا السالفة لتشير إلى الفجر، وتكاد تحدد ساعة الانتصار النهائى على كل العقبات والمثبطات.

* * *

مرة أخرى، نقول: فى قديم الزمان، كان ثمة غاز شعاره "العالم امبراطوريتى".

ومرة أخرى، نقول: إن ذلك الغازى الفاتح لم يكن دخيلا على عالمه وعصره ـ بل كان الابن البكر المطيع لروح جيله، وعصره .

كان حامل الراية، ومنفذ المشيئة .

ولطالما شهدت دنيانا أباطرة، وقياصرة، عبدت الشعوب صلفهم، وشادت بجورهم ـ فى أزمان كان العدل فيها مرادفا للقوة؛ فالعادل هو القوى...وكان الغزو فيها مرادفا للحضارة؛ فالغازى هو الرائد ...!

أزمان تطورت خلالها عادة أكل لحوم البشر تطورا ممتعا! فمن إنسان كان قبل هاتيك الأزمان.. ينضج فى

قدر، ثم يوضع فوق السماط بين صحاف الطعـــام.. إلى ملايين من الناس تجزر فى الحروب وتنحـــر.. ثم تـــترك للعفن، ولجوارح الطير.

حدث هذا.. ولا يزال قوم يحاولون له أن يحـــدث، من أجل النزوة المســعورة المنقرضـــة.. نـــزوة "العـــالم امبراطوريتى"..!

أجل.. فكل قيصر غابر، أو معاصر ـ يريد أن تخفـــق راياته على أوسع مساحة ممكنة من الأرض.. ويدخـــل فى حظائر رقيقه أكبر عدد ممكن من البشر.. ويضيـــــف إلى ثرائه أوفر قدر مستطاع من الغنائم والأسلاب ..!!!

وكان العالم فيما سلف، أكـــثر جـــهلا، وأكـــثر استسلاما وخوفا.. وأهم من ذلك، كان أكثر تبـــاعدا، وعزلة .

وهكذا، كانت استجابته للمشاركة بطيئة وجلـــة، وكل بلد، لم يقع فى شباك الغازى.. لم يكن يهتم بمصير البلد الآخر الذى وقع .. حتى يجـــىء دوره ذات يـــوم،

وتأزف آزفته، ويلقفه الغول الذى لا يشـــبع؛ فيـــدرك حينئذ أنه أخطأ الحساب، وأن مصيره تقـــرر فى نفـــس الساعة التى تقرر فيها مصير أول ضحية سكت عنـــها، وظن ألا وشيجة بين مصيره ومصيرها..!

لم يكن الناس ـ أيـــامئذ ـ قـــادرين علـــى إدراك أن"العالم قريتهم"كان ولاؤهم لأنفسهم لا لعالمهم ..

وهكذا سارت على الأرض فى عنفوان، وغلظـــة، وكبر. جحافل الإسكندر، وجيـــوش دارا، وإرهـــاب جنكيزخان. وقائمة طويلة كليل الشـــتاء، مـــن الغـــزاة والجبارين .

حتى جاء يوم صاح فيه الناس: ها..لقد ولد العـــالم الحديث..

وكان ثمة عالم حديث يطل بوجهه الباسم.. عـــالم يتسم بالاهتمام بالإنسان، وبحقوقه، وبمصايره.. عـــالم كان، ولا يزال يحمل رواسب أيام خلت... أيام الحقـــوق الإلهية المنتحلة للملوك والأمراء، والمستبدين ـ لكنه علـــى

الرغم من هذا قطع، ولا يزال يقطع طريقه وثبا نحو عـالم إنسانى ودود.. نافضا عن كاهله الكثير جدا مـــن أوزار القرون الماضية، وضلالها.

وعالمنا الحديث مسلح بقيم ذكية، تتخذ من كـــل مواطن الضعف مزية ونفعا ..

مثال ذلك، حروب نابليون.. إنـــها على قسوتـــها وبربريتها، طوحت بمبادئ الثورة الفرنسية وأذاعتـــها.. وأزالت كثيرا من التخوم والحـــدود، وهيـأت الأرض لوحدة محتومة..

فألمانيا ـ مثلا ـ قبل غزو"بونابرت" كانت تتكـــون من "ثلاثمائة" دويلة متفرقة، متباغضة ـ فوحدت يومئذ فى "تسع وثلاثين" حيث كان ذلك تمهيدا لاتحادها الكـامل فيما بعد على يد"بسمارك"..

و"إيطاليا" أيضا، كانت عند غزو"نـابليون" اثنـــى عشرة ولاية ـ فوحدت فى ثلاث فقط، حيث تم توحيدها فيما بعد على أيدى ماتزينى، وكافور، وغاريبالدى ..

هكذا اتخذ روح عالمنا الحديث من عدوان نـــابليون مزية، ونفذ من خلال أطماعه إلى تحقيق إرادة التجمـــع، والوحدة .

وفى الوقت الذى كان هناك آل"بوربون" وأســـرة "هابسبورج" ،وعائلـــة"هــانوفر"،وآل "رومـــانوف"، وآل"عثمان"ـ يملكون ويحكمون ويسودون..كان هنـــاك كذلك، توم بين، وماركس، وأنجلز، وروبرت أويـــن، وسان ســيمون، وفولتـــير، وروســـو، وتولســتوى، ومونتسيكيو ـ يقودون القلب البشرى، والفكر الإنســانى إلى العمل القوى من أجل تحرر شامل عميم ..

وعلى أصوات هؤلاء الأفذاذ، أخذ الوجدان البشرى يصحو، ويفيق .

والثورات التى كانت تقوم على أساس عنصـــرى، صارت تقوم على أساس عميم من حقوق الإنسان وتتجه اتجاها أكثر عالمية وشمولا..

فمثلا ـ حين تثور فى وجه النمسا أمـــم تســتعبدها

النمسا، ويلعب بمقدراتـــها طاغية أوربا "مترنيخ"ـ نـرى شعب النمسا نفسه يعمل بقيادة المثقفين فيـــه ـ علـى إسقاط "مترنيخ" وفتح باب الحريـــة للشـعوب الـتى تستعبدها النمسا.. وهكذا تلاشى الحـــس العنصـرى القومى ـ أمام الحس الإنسانى العظيم .

وكذلك عندما تداعت أمجاد الإمبراطورية العثمانيـــة فوق رءوس طغاتـــها الخلفـــاء.. ونـــهضت ولايـــات البلقان"المسيحية" هاتفة بحريتـــها واسـتقلالها.. نـــرى الشعوب العربية "المسلمة" تثور فى نفس الوقـست علـى تركيا ـ غير متعصبة"دينيا" لوطن الخلافة الإسلامية.. بـل ساعية هى الأخرى وراء حريتها واستقلالها.. هادرة مـع الموكب الذى لا يعرف غير الحرية وجهة وغاية.

هكذا اكتشف عالمنا الحديث نفسه، وأدرك مصيره.

* * *

وجاء العلم ناشرا قلوعه وشرعه.. جـــاء فصحـــح نظرتنا إلى الكون، وإلى الحياة، وإلى أنفسنا وعلاقاتنـــا؛

فإذا نحن على إثر هذا نتدانى، ونقترب وإذا الجغرافيا الإنسانية تنقلب انقلابا هائلا.

لم يكن العلم يعنى مجرد المعرفة النظرية .. بل كان يعنى كل ما تفضى إليه هذه المعرفة من حركة، وكشف، واختراع..

يعنى الأساليب الجديدة فى الصناعة، والزراعة، والتجارة..

إن تطورات فذة قد حدثت فى هذه القطاعات جميعا، ومع هذه التطورات قامت أزمات وتناقضات من نوع جديد.. وشد زناد "الربح" إلى أقصاه، فمضى يعالج تضخمه واختناقه بالاستعمار.. بيد أن إرادة الإخاء والتجمع كانت تتسلل، وتعمل، وتدفع المعوقات، وتلاقى أعداءها فى مواقف فاصلة..

وكانت"حركة التاريخ" وهى تمخر هذا العباب، لا تفتأ تلقى فى روع الناس أن عالمهم هذا واحد.. وأن أية كارثة تصيب أقصى شماله، سيصيب وبالها أقصى

جنوبه.

وثمة سؤال كان يمكن أن يوجّه لسكان العالم فى بداية عام ـ ١٩١٤ـ ولا يجد من يجيب عنه سوى أفراد معدودين..ويمكن أن يوجّه اليوم لسكان الأرض جميعًا دون أن يجد ممن يعرفون الجواب سوى نفر قليل جدُ قليل..

فأيُّنا يعرف شخصًا آخر اسمه "جافريلو برنسيب".. وشخصًا اسمه "فرديناند".. ومدينة اسمها "ساراجيفو"...؟؟؟

إن مئات الملايين منا لا يعرفون عن هذه الأسماء شيئًا.

ومع هذا؛ فإن مئات الملايين من الناس، سيقت من حيث لا تشعر ولا تريد، إلى حرب عالمية ماحقة بسبب هذه الأسماء الثلاثة ..!!!

نعم؛ فإن طالبًا صربيا هو"جافريلو برنسيب" أطلق رصاص مسدسه على وارث عرش النمسا، واسمه

"فرديناند" فى مدينة اسمها "ســـاراجيفو"؛ فـــإذا هـــذه الرصاصات تصبح السبب المباشر، وإن لم تكن الســـبب الأوحد، فى قيام الحرب العالمية الأولى التى التهمت حصاد الحضارة.. وسيقت الجموع البشرية من كـــل مكـــان لتكون لها علفا وقربانا..!

ألم يكن ذلك درسًا من التاريخ ـ أىّ درس ـ ليعلـــم الناس أن العالم قرية..؟وأن عود ثقاب واحـــد يُمســـك بأعواد من الحطب فى مكان ما من هذه القرية، قادر على حرقها جميعاً..؟

قد نتساءل: أى عدالة فى أن يدفع ســـكان الكـــرة الأرضية ثمن رصاصة غادرة أطلقها "تلميذ" فى مكـــان قصىّ بعيد..؟!

لكن العدالة أن يحدث هذا.. والعدل التاريخى هـــو الذى فرض على الناس كلهم هذا الفداء ـ لا فداء وارث عرش النمسا؛ بل فداء الحقيقة الـــتى رفـــض النـــاس أن يبصروها، ويأخذوا بـــها.. حقيقة أنـــهم عائلة واحدة،

فى قرية واحدة ..

حقيقة أنــهم ركب سفينة واحدة. إذا ترك أحـــد راكبيها يلهو بمثقب فى قاع الســـفينة، فقـــد اســـتحق الآخرون الغرق والهلكة والضياع .

ولقد كان العالم كله مسئولا عن الأســـباب الـــتى تراكمت وتجمعت بين يدى الحـــرب العالميـــة الأولى.. وواجب عليه أن يعرف هذا، فإذا جهل ولم يعرف، فلـــن يشفع جهله له..

إن الجهل بأن السم يقتل، لا يفيد شيئا فى إنقاذ حياة من يتناول السم جاهلا عقباه..

وكذلك جهل البشر بأن تمزق عالمهم مهلكة لهـــم، لا يفيدهم شيئا.

وهذا هو الدرس الذى يهيب بنا أن نحذقه.

فى عام (١٩٣٠) قامت فى دولة ما أو دولتين أزمـــة مالية بسبب آثار الحرب، وبسبب اضطــــراب نظمـــها الاقتصادية.. فهل ظلت الأزمة محصورة داخل حـــــدود

هاتين الدولتين ..؟

كلا، ولقد طارت كاللّهب حتى غطّت وجه الأرض واجتاحت كل الدول، ودعى العالم كله ليحمل ـ كارهاً ـ وزر تلك الأزمة الطاحنة .

وذات يوم قام فى ألمانيا مستبد أهوج اسمه "هتلـــــر" وقام فى إيطاليا دوتشى مغرور اسمه "موسولينى".

سيّر الأول"فرق العاصفة" تدق الأرض بأحذيتـــــها المختالة الثقيلة..

ووقف الثانى يخطب فوق فوهة مدفع صارخًا "الويل للأمم غير المسلحة"..

فهل عادت شـــرور الطــاغيتين علــى بلديـــهما وحدهما..؟

كلا.. وحينما سكت العالم عن غرورهما، بل صفّـق أحيانًا إعجابًا بــهما..طالبته العدالة التاريخية بـــالثمن، وألزمته القصاص وهكذا أصبح ذات يوم، فإذا هو وجبـة شهية، ووليمة دسمة لحرب عالمية ثانية..

"العالم قريتنـــا" ليست مجـــرد شعار جميل.. إنـــها الحقيقة.. وسيظل العالم يدفع ثمن كل خطأ، يرتكبـــه فى أى مكان مجهول، أى فرد مجهول.. ذلـــك لأن العـــالم قرية.. العالم وِحدة.. العالم كيـــان واحـــد كالجســـد الواحد..

ولقد تشابكت المشاكل العالميـــة، حـــتى صـــارت ظروف نشوئها وأسباب علاجها ـ عالمية، لا إقليمية..

وإن العالم اليوم لينادى إلى وحدته، كما لم يناد مـــن قبل.

لقد رأينا حين قامت مصر بتأميم قناتها، كيف وقف العالم كله ممسكا أنفاسه.. وكأنما القناة المصرية، تخـــترق كل شارع فى الدنيا بل كل بيت من بيوتها ..!

إن الناس ـ جميع الناس ـ مدعوون اليـــوم أفـــرادًا، وشعوبًا، وحكومات ـ كى يكيفوا سلوكهم وتفكـــيرهم وَفق هذا الإدراك.

عليهم ألا يفكروا لأنفسهم وحدها.. ولا يفكـــروا

بعقولهم وحدها.. بل يفكروا للعالم جميعه، وبعقل العالم جميعه.

هذه هى الضرورة الإنسانية والتاريخية التى كشفناها بعد طول عناء..والتى لا تقل وثاقة وحتمية عن أى قانون كونى.. ولا سبيل بعد الآن إلى تجاهلها، ولا سبيل إلى الفرار من تبعاتها.. فبدلا من أن نكتوى بعاقبة الإفراط والتفريط، علينا أن نكشف القوى التى ترفعنا إلى مستوى الحياة فى عالم واحد لا أنانية فيه ولا حرب، ولا استغلال ولا كراهية.

وهذا يقتضى أن نتعقب ونواجه كل عوامل الفرقة والتمزق، والضياع .

وليس هناك دليل أمين يدلنا على تلك العوامل ويفضحها سوى التاريخ، فلنمض معه، حتى نمسك بها غير متنكرة، ولا خادعة ..

التاريخ سجل يطوى كل واقعنا الإنسانى، ويصون وثائق تطورنا.. فلنسأله:لماذا نختلف ونتحارب..؟

من أى مادة صنعت المناجل التى حصدت الملايين البريئة من صفوف البشر..؟ من الطمع..؟ من البغض..؟ من الجهل..؟ من الغطرسة والكبر..؟ من خلل النظم، وفساد الأوضاع..؟

من بعض هذه، أم من كل هذه، صنعت مناجل الموت والفناء..؟

لنسأل التاريخ فى حقبه القريبة، ولنحاول أن نكشف فى ضياء أنبائه، تلك القوى الشريرة التى عملت، ولا تزال تريد أن تعمل على تقويض البناء البشرى، وتشتيت الصف الإنسانى.







من الحروب الصليبية
إلى الحرب العالمية الثانية









"يا شعب الله المحبوب المختار . . . . "
"لقد جاءت من فلسطين ، ومن القسطنطينية أنباء . . "
"محزنة ، تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ـ "
"قد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحيين . . . "
"يقتلون إخوانكم ويأسرون ويهدمـــون المذابح . . . "
"فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم !! . . . . . ."
"فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ـ ربنا ومنقذنا ـ "
"الضريح الذى تمتلكه الآن الأمم النجسة . . . . "
"إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم"
"أن هبُّـــوا لإنقاذهـــا . . . . "
"فقوموا بـــهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من "
"ذنوبكم .. وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك . . . "

"مجدًا لا يفنى فى ملكوت السماوات. . . . . "
"لا تدعوا شيئًا من أموالكم ولا من شئون أسركم . . "
"يقعد بكم عن القتال.. ؛ فالأرض التى تسكنونـــها "
"الآن، والتى تحيط بـــها من جميع جوانبها البحار، . . "
"وقُنَن الجبال ـ أرض ضيقة لا تتسع لسكانـــها . . . "
"الكثيرين.وتكاد تعجز عن منحهم مايكفيهم من الطعام"
"ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعضكم "
"بعضًا، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم . . . . "
"فى حروب داخلية . . . . "
"إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها فانتزعوها . . "
"من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . . . . ! ! ! "

* * *

هذا هو النداء الذى وجهه البابا "إربان الثـــانى" إلى شعوب أوربا داعيا إياها إلى الحروب الصليبية . وهـــذا النداء هو الطلقة الأولى فى تلك الحروب.

ونحن الآن فى أوربا.. فى القرن الحادى عشر حيـــث

تتكون "أوربا"وتصنع نفسها.. وحيث تتكشف رويداً رويداً جميع القيم التي ستحدد لها اتجاهها الفكرى والسياسى والاقتصادى.، وحيث تبرز إلى المقدمة العوامل التي ستؤثر في حركة التاريخ، وتدفعها .

ولقد تسأل: ما شأن أوربا بموضوعنا هذا ..؟

ألا فلنعلم أن قصة "أوربا" هى قصة المرحلة الماثلة من مراحل التطور البشرى، والتحول العالمى.. ولا سبيل لمعالجة قضية السلام العالمى.. والإخاء الإنسانى بعيداً عن أوربا، وعن الأحداث التي صنعت أوربا، وصنعتها أوربا..

• فالقارة الأوربية ـ هى الوارث الأكبر للتراث الإنسانى جميعه.. اليونانى.. والمسيحى.. والإسلامى ..

كما أنها اليوم، الراحل الذى يرثه عصرنا وأجيالنا.

• والقارة الأوربية ـ هى الوعاء الذى تشكلت داخله هذه الثورة الصناعية الكبرى التي دفعت العالم

وأشاعت فى حركته الداهمة كثيرًا من التناقضات، وملأت الحياة الإنسانية بفلسفات ومذاهب، وعوامل شتى من الفكر ومن المحاولة ـ هى التى تحدد اليوم للتاريخ وجهته وطريقه .

• والقارة الأوربية ـ هى الجسر الذى تعبره اليوم حضارتنا الإنسانية، مولية وجهها شَطر تطور أمثل، وغد أفضل..

والقوى التى تبث فى الحياة الإنسانية كثيراً من الخير، وتصيبها بكثير من الشر والضر.. ترعرعت فى أوربا وازدهرت ـ مما يجعل دراستها فى وطنها هذا أمرًا محتوما.

وأوربا كقوة سياسية ذات تأثير عالمى تبدأ ـ فى تقديرنا ـ من الحروب الصليبية.. تلك الحروب التى حملت إلى أوربا ثقافة كانت تنقصها.. وفتحت عينيها على ثروات كانت تريدها، وعلى دور تاريخى كانت تتهيأ له.

هذا الدور الذى يبدأ باليوم الذى سارت فيه طلائع

تلك الحروب التى ظلّت تعاود الظهور والالتحام على مدى مائتى عام، بل أكثر من مائتى عام، والتى سميت بالحروب الصليبية ..!

* * *

ونعود إلى البابا "إربان الثانى" يتنقل بين شعوب القارة مذيعًا فيها نداءه السالف .

"يا شعب الله المحبوب المختار. . ."

لقد أخذ "إربان" على كاهله أن يصنع من شعوب أوربا قذيفة يرمى بها ما أسماه "الشعوب النجسة".

وكان من الطبيعى أن يلجأ للحمية الدينية يثيرها، ويستجيشها، فذهب يحدث الناس هناك عن إخوانهم الذين يقتلون فى فلسطين وعن الضريح المقدس الذى يلقى المسلمون فيه رجسهم ونجسهم .

والتاريخ يشهد. كيف كان المسيحيون فى فلسطين ينعمون بالحرية والأمن بين إخوانهم العرب والمسلمين..

وحين قام حاكم مجنون أصاب المسلمين من شره أكثر مما أصاب المسيحين ـ وهو الحاكم بأمر الله..

نقول: حين قام هذا الحاكم فى نوبة من نوبات جنونه بهدم "كنيسة الضريح" نهض المسلمون فى كل الأقطار، وجمعوا مالا جَمًّا وأعادوا البناء المتهدم أروع وأبدع مما كان.

فلماذا وقف البابا "إربان " موقفه ذاك ..؟

وما حقيقة الدوافع لحرب لبثت فوراتها أكثر من مائتى عام..؟!

هنا تتلقى"أوربا" أول وأخطر درس فى حياتها السياسية.. ويتلقاه العالم كله منها .

* * *

• بدأت الحروب الصليبية بطليعة لم تصبر من فرط حماسها و لم تنتظر الموعد الذى حدده"البابا" لبدء الزحف، فسارعت إلى الخروج فى مارس عام ١٠٩٦ بقيادة "بطرس الناسك".

ولم تكد هذه الطليعة ـ التي كان يُنتظر منها الورع والتقوى ـ لم تكد تقطع من الطريق بضع فراسخ حتى دهمها اليأس والجزع. فمضت تسرق وتنهب وتهتك الأعراض في بلاد المسيحيين أنفسهم مما جعل"بطرس الناسك"يعتزلهم، مشمئزا ساخطا .

• بعد هذه الطليعة، تحركت الحملة الأولى يقودها أمراء أوربا ولا يكادون يبلغون منتصف الطريق حتى يصير بأسهم بينهم شديدا.. ويذهب كل منهم إلى سبيل.يفتح لنفسه فتوحًا خاصة ..

ويَشَمُّ "إلكسيوس" إمبراطور "بيزنطة" أنهم يريدون "القسطنطينية" المسيحية، أكثر مما يريدون "أورشليم" وذلك لما في القسطنطينية من كنوز وأموال، فيتقى شرهم بالرشوة ويشترى ولاءهم ـ الذى سرعان ما خانوه ـ بالأموال والهدايا وبعد ثلاث سنوات من زحفهم يبلغون "أورشليم" ويفتحونها.

• وتقوم الحملة الثانية بقيادة "لويس السابع"،

و "كنراد الثانى" إمبراطور ألمانيا، فتسوم بعض بلاد أوربا المسيحية الخسف والعذاب، وعند مشـــارف القـــدس تنـــزل بـــها هزيمة ماحقة.

• وتتلوهـــا الحملـــة الثالثـــة. يقودهـــا "قلـــب الأسد"وتنتهى بالصلح ..

• ومن بعدها تأتى الحملة الرابعـــة.. فالخامســـة.. فالسادسة..

• ويجىء مسك الختام بالحملة الســـابعة يقودهـــا "لويس التاسع" ملك فرنسا وأسير دار ابن لقمان ..!

* * *

عَبْر هذه الحروب التى دامت أكثر من مائتى عام تخبو تارة وتتسعَّر تارة أخرى.. تكشف الوجه الحق لإحـــدى القوى المخربة التى تعمل لتقويـــض التفـــاهم العـــالمى، والإخاء الإنسانى..

وتبين تماما أن الدين قد استُغلَّ استغلالا رديئًا لإنجاح غزو كانت كل بواعثه اقتصادية عدوانية.. وعرف الناس

أخيرًا ـ أن الصليب لم يكن يقود الناس إلى معارك مقدسة كما ألقي فى روعِهم.. بل إن التجارة هى التى قادت الصليب فى خداع ومكر إلى معارك الربح والإثراء.. وإلى مآرب أخرى..

ولسنا ندرى: هل كان "إربان" يعى هذه الحقيقة حين دعا أوربا إلى الحرب، وحين قال لها فى ندائه السالف :

"إن الأرض التى تسكنونها تضيق بكم ،"
"وتعجز عن إمدادكم بكفايتكم من الطعام"
"فاخرجوا إلى أورشليم، فإنها أرض"
"لا نظير لها فى خيراتها . . . "

أقول: لا ندرى هل كان البابا "إربان" يعى حقيقة الدوافع لتلك الحروب. أم أن أساطين التجارة والمال، قد أحسنوا استغلاله.

ومهما يكن من أمر؛ فإن إغراءه الناس وحضّهم على الحرب بسبب من المعيشة والرزق، يدل على أن

الدين وحده لم يكن كافيًا لإضرام تلك النار .

والآن، لننظر كيف أن التجارة وحدها كـانت وراء تلك الحروب التي كادت تعصف إلى الأبد بكل روابـط الإخاء والقربى بـين الديـانتين الكبـيرتين ـ الإسـلام والمسيحية..؟

إن المدن الإيطالية الأربع ـ البندقية، وجنوى، وبـيزا، وأملفى ـ كانت تقوم بتصديـر المحـاصيل الإيطاليـة، ومحاصيل البلاد الواقعة وراء جبال الألب..

هذه المدن، اتسع نشاطها، ونَمتْ تجارتهـا عندمـا انتزعت صقلية وجزء كبير مـن أسـبانيا مـن أيـدى المسلمين، فخلص غرب البحر الأبيض المتوسـط لهـا.. واشرأبت أطماعها بعد هذا إلى شرق البحر الأبيض الذى لا يزال فى قبضة المسلمين.. وهنا وضعت تلـك المـدن خطتها للسيطرة على شرق الأبيض المتوسـط تمـهيدًا للسيطرة بعدئذ على أسواق الشرق الأدنى.

هذا هو السبب الذى أشـعل الحـروب الصليبيـة

وفضحه سلوك الحرب نفسها .

• ففى الحملة الثانية، نجد"بلدوين" الذى ورث انتصارات أخيه، ينصب نفسه ملكا على"أورشليم" بمساعدة المدن الإيطالية نظير أن يسلمها يافا، وصور، وعكا، وبيروت، وعسقلان.. أى يسلمها جميع المرافئ والثغور التى تريدها لتجارتها.!

• وعندما دعا القديس"برنار" للحملة الثانية، يتقاعس عنها "كنراد" إمبراطور ألمانيا.. فتتقدم البندقية، وجنوى، وبيزا.. وتغذى الفتنة الداخلية التى كانت قائمة يومئذ فى ألمانيا.. ثم توعز إليه بأن خير سبيل للقضاء على هذه الفتنة أن يشغل شعبه بالحرب خارج بلاده .

وهكذا تزعم "كنراد" الحملة الثانية...!

• وبعد موت"صلاح الدين" يدعو البابا" أنوسنت الثالث" إلى الحملة الرابعة، ويرسم بنفسه خطة الحرب، وتقضى بأن تتجه الحملة أولا إلى مصر فتستولى عليها..ثم تثب منها على بيت المقدس.

وتؤيد"بيزا" و"جنوى" هذه الخطة.. ولكن البندقية تحاول دحضها.

لماذا ! ...؟

إن"البندقية" آنئذ. كانت تربح من مصر أموالا طائلة. إذ تصدر إليها الأخشاب، والحديد، والأسلحة، وتستورد عن طريقها الرقيق.

وانتصار الهجوم المقترح عليها ـ يجعل من بيزا وجنوى شريكتين لها بعد النصر فى تلك الأرباح التى تحتكرها.

من أجل هذا، عارضت الحملة.. ولما أكرهها البابا على القبول تظاهرت به، وأسهمت فى تمويل الحملة وإمدادها بالخيل والسلاح، لكنها فى نفس الوقت، أبرمت مع مصر اتفاقا سريا ـ ضمنت لها فيه تعويق الغزو وإحباطه ..!

• ونحن نعلم أن الامبراطورية البيزنطية، كانت مسيحية بل كانت معقل المسيحية.. ومع هذا، لم تكد

تلغى الامتيازات التجارية التى كانت تتمتع بـــها مدينـــة البندقية.. حتى تلقت من الجيوش الصليبية نفسها ضربـــة قاتلة .

لقد جهزت "البندقية" جيشا قوامـــه عشـــرة آلاف جندى، وسيرته إلى القسطنطينية ..!

وثار البابا، وأنذر بحرمان كل من يشترك فى هـــذا الجيش.. ولكن رنين المال، أصم الآذان عـــن نداءاتـــه المقدسة.

وفورا، تحركت إلى القسطنطينية"المسيحية" أربعمائـة وثمانون سفينة.. ودخلها الجيش الصليبى ظـــافرا فاتحـــا. وعاث فيها تخريبا ، وفسادا، وعربدة.

يقول "ديورانت" فى كتابه "قصة الحضارة":

"... وعانت كنيسة أيا صوفيا يومها"

"على أيدى المسيحيين أنفسهم ما لم تعان مثله"

"على أيدى الأتراك فيما بعد عام ١٤٥٣...."

* * *

وبعد.. أليست هذه الشواهد التي سـقناها كافيـة للدلالة على أن الحروب الصليبية، لم تكن صليبية ..؟؟

بلى.. ولقد كانت حروب التجارة، والربـح، ورأس المال..

ولا شيء سواها .

وثمة مشاهد أخر، لابد من تدبر مغزاها .

فالحرب الصليبية لم تتخذ المسلمين وأرضهم هدفـها الأوحد.. بل صبت عذابها صبا على يهود أوربا .

فالحملة الصليبية الأولى ـ قرر زعماؤها قبل السـير إلى أورشليم أن يجهزوا على اليهود بقتلهم وحرقهم .

وبالفعل، زحفت الجيوش محاذية نهر الرين، فأبـادت اليهود إبادة شاملة .

وقد تسأل: ولماذا اختار الصليبيـون هـذه الجهـة بالذات..؟

والجواب يكشف لك عن سر الحـروب الصليبيـة كلها ففى محاذاة نـهر الرين كانت تقع مراكز التجـارة

والأعمال اليهودية .

ولما كان المحركون الحقيقيون للحرب الصليبية هم أساطين التجارة والمال فى البندقية، وجنوى؛ فإن خطتهم تعتمد على التخلص من كل منافس قوى.. واليهود فى أوربا ـ هم ذلك المنافس... وإذن فلتجهز عليهم جيوش الصليب ..!

وهكذا بدأت الحملة الأولى عملها ـ وفى مذبحة "وورمز" وحدها قتلوا ثمانمائة يهودى ـ وأشعلوا النار فى حى التجارة والمال .

وفى الحملة الثانية ـ بدأت الجيوش رحلتها بهجوم مبيد على يهود أوربا.. ووقف القديس"برنارد" وكان معبود المسيحيين جميعا.. وقف ينهى عن قتال اليهود.. لكن قوة المال كانت أنفذ من صوته الوديع .

وفى مذبحة أخرى تدعى"يوردو، وانجوليم" بفرنسا، طرح الصليبيون ثلاثة آلاف يهودى على الأرض مصفدين.. ثم جىء بالخيل يعلو ظهورها الفرسان..

واتخذت من جثث هؤلاء أرضا تطؤها الخيل وتجرى فوقها فى سباق عنيف حتى هلكوا جميعا ووقف البابا "جريجورى التاسع" يزمجر، ويلعن الصليبيين على وحشيتهم.. ولكن البابا الحقيقى للحروب الصليبية ـ كان رأس المال الذى أراد هذا فكان له ما أراد ..!

وفى ختام تلك الحروب توجس التجارة خيفة من فلول الجيوش الصليبية؛ فتغرى بهم الكنائس والحكومات.

وهكذا رأينا"فرسان المعبد" الذين كانوا من أشد المقاتلين حماسا واندفاعا ـ يتعرضون لنقمة الكنيسة والحكومات فى كل بلاد أوربا.

ورأينا صكوك الغفران التى كانت تمنح لمن يقاتل المسلمين، صارت تمنح لمن يقاتل"فردريك الثانى" وجيوشه المسيحية..!!

انتعشت قوى المال والتجارة بهذه الحروب انتعاشا لم تظفر به "روما" نفسها فى حياتها وبذخها.. وغمرت أوربا بخيرات لا عهد لها بها من قبل.. فطعمت الذرة،

والأرز، والسمسم، والبطيخ، والمشمش، والتمر، والليمون، واشتد هيامها بالتوابل.. ولبست الدمقس، والساتان، والمخمل والأقمشة المزركشة.. واستعملت الطنافس، والأصباغ، والعطور..وازدانت بالجواهر والياقوت .

وتلقت "أوربا" الدرس كاملا من هذه الحروب وكان يتلخص فى هذه العبارة :

"الحرب تنعش التجارة .. .. " .. ..!!

بعد هذا لم يصبح الشرق مأرب التجار وحدهم.. بل سارعت الحكومات، وسارع الملوك إلى الفتح حتى إن معظم الرحلات التى قامت لكشف مجاهل الأرض، كانت فى الحقيقة رحلات فى طلب الثروات بل وفى طلب الأفاويه بالذات.

لقد فتنت "أوربا" بالأفاويه فتونا شديدا. حتى إن الزنجبيل والقرفة. كانا يباعان بميزان الصيادلة والصاغة.. وكان الفلفل الأسود يباع بالحبة.. وثمن الحبة الواحدة،

زنتها فضة..!!

يقول"زفايج" فى كتابه"فاتح البحار" ..

"لقد كانت الجرأة التى أوحت برحلات كولمب ،"
"ودياز، وجون كابوت، وغيرهم من عظماء الرواد"
"فى عصرهم ـثمرة الرغبة فى الاهتداء إلىطريق تجارة"
"جديدة مأمونة إلى جزر "البهار" الشرقية" ...!!

* * *

غذت الحروب الصليبية كل قطاعات التجـــارة فى أوربا.. وأفاضت على النشاط المالى حيوية جارفة .

وفى نفس الوقت، رأت أوربا ذلك الرخاء، وذلــك التقدم، ثمرة من ثمرات الحروب الصليبيــــة.. واعتنقـــت الفكرة القائلة "الحرب تنعش التجارة" ..

وهكذا ستمضى أوربا حياتــها.. تعالج أزماتـــــها بالحروب. وتنمى ثرواتـــها بالحروب ..!!

ولسوف تنهض المصارف والشركات.. وســـوف تبلغ من الضراوة حدودا فوق طاقة الجماهـــير المســتغلة

المستترفة.. وسوف تهب تلك الجماهير لحماية مصالحها فى ثورات تملأ أوربا.. متخذة نهجا من فحوى ذلك الشعار"كل ثروة سرقة.. وكل ثرى سارق".. وسوف تحدث انتفاضاتها هذه رد فعل آخر لدى أرباب المال والمصالح الكبرى فيزداد ضغطهم وتكالبهم ..

وبعبارة واحدة، ستعانى أوربا حياتها.. ولكنها لن تتخلى عن هذه الحكمة"الحرب تنعش التجارة".. وهكذا نلتقى بحرب أخرى لها فى التاريخ شهرة قريبة من شهرة الحروب الصليبية.. تلك هى "حرب المائة عام".

لقد استغرقت أعمال تلك الحرب مائة عام كاملة ما بين بريطانيا وفرنسا.

والعجيب أن سببها هى الأخرى ، كان التجارة ..

بل إن تاجرًا واحدًا ـ لكنه واسع الثراء والنفوذ ـ هو الذى أحجج تلك الحرب.

أجل.. ففى عام ـ ١٣٣٦ـ منعت انجلترا تصدير الأصواف إلى "الفلاندرز"، التابعة لفرنسا.. كما امتنعت

عن استيراد الأقمشة الفلمنكية منها .

وكان عميد هذه التجارة فى "الفلاندرز" رجلا اسمه"يعقوب فان ارتفلد"..

ورأى يعقوب هذا أن تجارته ستبور؛ فأبرم مع "إدوارد الثالث"ملك انجلترا اتفاقاً سريًا يبيح لانجلترا احتلال "الفلاندرز" وتستأنف بعد هذا كل علاقاتها التجارية معها وبدأ تنفيذ الاتفاق بين التجارة والسياسة.. بل بين التاجر والملك.. وبمجرد البدء فى تنفيذه بدأت حرب "المائة عام".. !!!

* * *

وفى أواخر القرن الثامن عشر. تتولى حكومة الإدارة حكم فرنسا، وفرنسا مفلسة خاوية..ولا يكاد بونابارت يفتح لها "بلجيكا"وتذوق طعم خيرات هذا الفتح من فحم وحديد ومصانع..حتى تدفع نابليون، ويدفع هو نفسه إلى فتوح تلو فتوح .

* * *

وتجلو"بريطانيا"مكرهة عن الولايات الأمريكية بعد انكسارها فى حرب الاستقلال.. ولكنها بعد أعوام طويلة من جلائها، تعود لغزوها من جديد، أو تحاول غزوها من جديد حين تراها تتاجر مع فرنسا ـ الأمر الذى يعرض التجارة البريطانية للخسارة والبوار ..!

* * *

وفى الشرق الأقصى، تقود التجارة وأطماع المال أكثر حروب التاريخ خزيا وظلما..تلك هى"حرب الأفيون".

ذلك أنه فى عام ـ ١٧٩٦ـ تسن حكومة الصين تشريعا ينقذ رعاياها من الأفيون، ويحرم على الناس تعاطيه والاتجار به .

وكان"الأفيون" تجارة رابحة تصدرها أوربا وبريطانيا بالذات إلى الصين ..

وهكذا صادرت حكومة الصين عام ـ١٨٣٩ـ عشرين ألف صندوق من الأفيون، مهربة من بريطانيا..

وعندئذ تحرك التجارة البريطانية ـ الدولة والجيش فتزحف أساطيل بريطانيا العظمى ـ ولا تنسوا كلمة العظمى هذه ـ تزحف إلى الصين فتضربها وتحتل جزيرة"هونج كونج" التى لا تزال تحتلها حتى اليوم.. وتنتعش الشركات البريطانية يومئذ ببركات حرب الأفيون ..!

ولم تكن تجارة الأفيون وحدها ـ الدافع لحرب الأفيون.. فإن التجارة يومئذ كانت قد تطورت. فصارت لا تعنى تصدير السلع فحسب.. بل وتصدير رءوس الأموال لتوظيفها فى نشاط تجارى .

* * *

وتبصر فرنسا نجاح حرب الأفيون، فيسيل لعابها.. وتضغط الشركات الفرنسية على الحكومة والجيش.. فتشن هى الأخرى غزوا لبلاد الصين.. مفسحة للتجارة الفرنسية مكانا خصبا.

وبعد فرنسا تتقدم روسيا القيصرية مدلية هى الأخرى دلوها..!

وتضج اليابان من سوء استغلال أمريكا وبريطانيا لموانيها التجارية.. وتتهم باتخاذ الإجراءات التى تنقذ اقتصادها من الصادرات المتدفقة عليها كالسيل.. والعملة الأجنبية الهابطة عليها كالدمار فتتحرك أساطيل مشتركة من أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وهولاندا..فتغزوها. وتدعم هناك مصالحها التجارية.

* * *

ولقد فتحت الهند بشركة بريطانية ... !!

وفتحت مصر بأموال روتشيلد...!!

بل إنه فى عام "١٨٥٠"سيرت بريطانيا أسطولها الكبير الوقور الأفخم لمحاصرة اليونان من أجل ديون أحد المرابين الإنجليز ..!!

إن كل فتوح أوربا وغزواتها ـ كانت فتوح التجارة، وغزوات رأس المال .

وكلما ازدهرت التجارة. ازدادت حاجتها إلى الحرب. فالازدهار التجارى، يسبب ازدهارا صناعيا.

ويزيد الإنتاج زيادة مبهظة تتطلب المزيد من الأسواق، والمزيد من الخامات.. والأسواق والخامات. لا تباع عند العطار(!) والظفر بها يتطلب الاستعمار، والاستعمار وسيلته الحرب، والقوة، والسطو.

وهكذا ازدحم القرن التاسع عشر بالحروب التى قادها أطماع التجارة والربح .

فإذا أهلّ القرن العشرون، وجاءت الحرب العالمية الأولى، أبصرنا بين يديها الأسباب التى هيأت نشوبها. وعلى رأس تلك الأسباب منافسات التصدير، والأسواق، والمواد الخام .

إن تراكم الإنتاج أنجب الأزمات، وأفرز الكساد.. وفى ضباب الكساد والأزمة، تتلاشى التجارة الصغيرة، وتقع بين فكى التجارة الكبيرة، وتتربع على العرش شركات الاحتكار، وينفسح المجال لملوك المال، وأقطاب الربح.. وبين هؤلاء تقوم منافسة أخرى لكنها عارمة القوى، حادة الأنياب، خطيرة النتائج. لأنها لا تتحرك

وحدها ـ بل تحرك معها الحكومات والجيوش وهنا تقوم الحروب.. وهنا قامت الحرب العالمية الأولى.. حين اصطدمت مصالح الشركات والاقتصاد بين الدول المتقاتلة على المنافع ـ المتنافسة على النهب ..!

وعلى الرغم من الكوارث التى أنزلتها بالبشرية، تلك الحرب فإن ملوك المال لم يزدادوا بها إلا نعمى.. وإلا اقتناعا بأن الحرب تنعش التجارة.. وهكذا لم يحاولوا أن يطامنوا من جشعهم حتى لا تتعرض البشرية لمحنة أخرى.. فساروا بالدنيا إلى كارثة الحرب العالمية الثانية.!

وبين يدى هذه الحرب أيضا تجمعت ظروف نشوبها، وعلى رأس تلك الظروف نفس الآفة، ضراوة الربح ورأ س المال.

فألمانيا، أخذت صناعاتها تغزو الأسواق فى تفوق ملحوظ وإنتاجها زاد ونما.. ونجاحها هذا ضاعف من حاجتها إلى المواد الخام لتصنع. وإلى الأسواق لتصدر، ومثل ذلك تماما ـ اليابان، وإيطاليا.

قبيل الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا ينقصـــها من المواد الخام اللازمة لكافة الصناعات أربـــع مـــواد لا غير.

بينما ينقص ألمانيا، ست وعشرون مادة.

وينقص إيطاليا، ثنتان وعشرون مادة .

وينقص اليابان، تسع عشرة مادة.

وهذه المواد التى تنقص تلك الدول الظامئة الطامعة ـ من حديد، ونحاس، وصفيح، وفحم، وبترول،ومطـــاط وقطن، وخشب، وصوف... الخ.

هذه المواد، توجد متفرقة فى أقطار شتى من الأرض، تستعمرها دول أخرى مثل بريطانيا، وفرنسا ..

فهل تغلق الصناعات فى ألمانيا وإيطاليـــا واليابـــان، أبوابـــها؟

هل يحنى ملوك المال فى تلـــك البـــلاد رءوســـهم ويستسلمون.؟

كلا... ولابد من صنع وإن طال السفر..

وهكذا تأخذ ألمانيا "الرين والسار" ثم تخطف النمسا وتشكوسلوفاكيا..وتخطف إيطاليا الحبشة..وتغزو اليابان الصين.

ولقد أعلن الدوتشى قبل غزو الحبشة أن إيطاليا فى أشد الحاجة إلى القطن والبن.. ولهذا ستذهب إلى الحبشة..

وفى هذا الوقت، كانت أمريكا تأمر زراع القطن فى بلادها أن يتلفوا أجزاء كبيرة من الأرض المزروعة قطنا حتى لا تتسبب وفرة المحصول فى خفض السعر ..

وكذلك .كانت البرازيل، تلقى إلى جوف المحيط بملايين الأطنان من محصول البن حتى لا ينخفض سعره بسبب وفرته .

انظروا ...!!

بلاد تتلف المحاصيل، لكثرتها ولكى تضمن سعرا أعلى وأخرى، تسوق أساطيلها وجيوشها لتستعمر بلدا حرا تسد بإنتاجه جوعها إلى القطن والبن.. القطن الذى

يتلف فائضه فى أمريكا..والبن الذى يغـــرق فائضـــه فى البرازيل...!!

وليس يقتصر وباء التجارة والرأسمالية على إشـــعال الحروب، ونشر الاستعمار. بل هى قبل هذا تعطل حركة التاريخ بمساندتـــها القوى الرجعية وتأييدهـــا المطلـــق للفاشية.

حدث هذا فى إيطاليا عام ١٩٢٠ حين قام نصـــف مليون عامل بالإضراب احتجاجًا على الظلـــم الواقـــع بـــهم من أصحاب المصانع .

يقول نـــهرو فى كتابه "لمحات من تاريخ العالم":

"وأخذ أصحاب المصانع يفكرون فى خطة للانتقام "
"ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى . ."
"وكان أول من فكروا بالاستعانة بـــهم، جماعة "
"من المغامرين بقيادة ـ بنيتو موسوليني ـ أطلقت "
"على نفسها ـ الفرق الفاشية ـ وأخذ كبار الرأسماليين"
"وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه الفرق"

"الفاشـــية،ويحـــاولون اســـتخدامها فى مقاومـــة
الاشتراكية"

وحدث مثل هذا فى ألمانيا كذلك .

يقول "نـــهرو" فى نفس الكتاب :

"وقد نجح هتلر نجاحًا كبيرًا فى الاحتفاظ بين يديـــه"
"بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . . "
"واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة . . ."
"تتحالف مع أصحاب المصانع، وملاك الأراضى "
"الكبار . . . ."
"وسبب هذا، أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر، "
"وزودوه بالمال لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة . . "
"الرأسمالية، يشكل أكبر عائق فى طريق الاشتراكية "
" العلمية الصحيحة . . . . "

* * *

ومثل ذلك أيضًا حدث فى أسبانيا..فوراء الجـــنرال

فرانكو ـ كان أصحاب الإقطاع الذى قررت حكومة الجبهة الشعبية تصفيته، يقفون ويتآمرون.. وكان الرأسمال الأجنبى ـ البريطانى والفرنسى ـ يذهب فى تأييده وتعضيده مذهبا بعيدا. لأن المناجم الأسبانية الكبرى كانت جميعها تستثمر برءوس أموال بريطانية وفرنسية.

* * *

ما مغزى هذه العجالة التاريخية التى سردناها..؟

هل نلغى التجارة..؟؟

هل نوقف نشاط المال، ورأس المال..؟؟

سؤالان وجيهان.. والإجابة عنهما آتية.. ولكن لنذكر هنا.. أن أساليب التجارة ورأس المال.. تقف على رأس الأسباب التى تمزق عالمنا.

ولننتقل الآن إلى آفة أخرى، هى بهذه وثيقة الصلة.. وهى أيضا لا تقل عنها ضراوة وفتكا.





من الحلف المقدس
إلى ميثاق الأطلسى









إذا بقيت الأخطاء دون تصحيح تعاقبت فى تسلسل حتمى لا مفر منه.

والخطايا، ينادى بعضها بعضا، وكلما تجمعت خلق تجمعها هذا ظروف نموها واستمرارها .

والتجارة فى حد ذاتها. لم تكن خطأ ولا خطيئة.. ولكن طريقتها فى العمل، وتحولها إلى قوة احتكارية طاغية، وغازية، جعل منها خطيئة كبرى .

ولقد أنجبت الخطيئة سلالة طويلة من الأبناء والحفدة.. وأكثر فلذاتها شرا، وضرا ـ الأحلاف..

وعبر التاريخ سار الوالد وما ولد.. سارت التجارة

والأحــلاف ليفرضا على عالمنا. إرادة الشر والنـــزاع، والحرب .

ولقد عرفت التجارة أهمية الأحلاف إبان الحـــروب الصليبية أيضاً.

فالمدن الإيطالية التى كانت تتزعم الاقتصـاد الأوربى، والتى رأيناها تقف وراء الحروب الصليبية.. كان الخلاف كلما نشب بينها، عالجته بلباقـــة الحريص على المغـــانم المشتركة. والمصير المشترك .

وسنكتفى هنا بملاحظة سير الأحلاف خلال الأعوام المائة التى سبقت الحرب العالمية الأولى.. تلك التى بـــدأت عام ـ١٨١٤ـ إثر هزيمة نابليون ..

إن الدرس الذى نتلقاه عن تلك الأحلاف فى الحقبـة المذكورة.. أعنى منذ ـ ١٨١٤ـ حتى يومنا هـــذا ـ لهـــو درس نافع وعظيم .

وسنرى كيف كان سير الأحلاف من عـام ١٨١٤، إلى عام ١٩١٤، يتجه حتما إلى تلك الحرب الكـــبرى ،

بعد أن أشعل فى طريقه إليها عشرات الحروب المحلية ...

سنرى كيف أن الحرب العالمية الأولى لم تعلن عـــام ـ١٩١٤ـ.. وإنما أعلنت عام ـ١٨١٤ـ،ونشبت عـــام ـ١٩١٤ـ.

لقد اتجهت ـ أوربا ـ فى سُعار شـــديد إلى سياســـة الأحلاف بعد هزيمة ـ نابليون ـ وسارت الأحلاف جنبًـا إلى جنب مع الاحتكار الطامع .

بعد أن دخل المنتصرون على نابليون مدينة باريس ـ قرروا، وكانوا روسيا ـ بروسيا ـ النمسا ـ بريطانيا، أنهـم اجتمعوا لتوثيق الأواصر التى تربط الحلفـــاء، ولحمايـة السلام .

وفى مؤتمر ـ فيينا ـ الذى تلى اجتماع ـ شـــومون ـ كادت أطماعهم المتصادمة تعصف بهم وبالمؤتمر .

وفى عام ـ ١٨١٥ـ دعا "اســـكندر الأول" قيصـــر روسيا، إلى "الحلف المقدس".. راجيًا أن يجــــىء هـــذا الحلف تصحيحاً للموقف كله.وبداية لعهد جديد يقـــوم

على السلام والخير، وفى نفس الوقت يصـــون وحـــدة الحلفاء الكبار الأربعة، لتزجر هذه الوحدة أى نـــابليون آخر تنشق عنه الأرض ذات يوم .

وانعقد الحلف المقدس، ووقعته دول أوربا، وتعـــهد المشتركون فيه أن يكون رائدهم "العدل، والإحســـان، والسلام"..

وعلت أهازيج البشائر، بأن القرن التاسع عشـــر، سيكون قرن السلام والرشاد ..

فهل كان كذلك حقًا ..؟؟

عجبًا.. لقد جاء القرن التاسع عشر، أكثر القـــرون ازدحاماً بالحروب.. وأكثرها إيغـــالا فى الاســـتعمار.. وأكثرها تحدياً للعدل وللإحسان وللسلام ..!!

فخلال هذا القرن ..

خاضت"بريطانيا" حروبـــاً كثـــيرة فى إفريقيـــا.. وحاربت إيران مرة.. وأفغانستان مرتين.. وخاضت ضد الصين حربين.. وضد بورما ثلاث حروب.. وخـــاضت

هى وفرنسا وروسيا حرب القرم .!

وشنت فرنسا حروبا ظالمة فى شمال إفريقيا، واستولت فيها علىالجزائر، ومراكش، وتونس.. وشنت حرباً أخرى فى إفريقيا الاستوائية، والهند الصينية، واستولت عليهما..!

وخاضت روسيا القيصرية ضد تركيا ثلاث حروب.. وضد إيران ثلاث حروب أخرى.. وشنت.. على الصين حربا استولت فيها على ـ فيلاديفوسك ـ..!

وحتى إيطاليا، التى كانت تحتلها النمسا، لم تكد تتحرر من مستعمرها حتى شنت هى الأخرى حربا ضد الحبشة احتلت فيها ـ إرتريا ـ..وحربا ضد تركيا، واستولت على ـ طرابلس ـ..!

ولم تشأ "بروسيا" أن تقف متفرجة، فحاربت النمسا.. ثم تحرشت بفرنسا، وحاربتها، وأخذت ملكها أسيراً، واستولت على الألزاس واللورين.. واستمرأت الحرب فنقلتها إلى الصين وإفريقيا ..

وأذلت اليابان دلوها، فشنت على الصين حربا ..!

وعزّ على النمسا أن تفقد إيطاليا، وألمانيا.. فيممت وجهها شطر البلقان، واشتبكت مع تركيا..!

هذه هى "حصيلة" القرن العشرين من السلام، ومن العدل، ومن الإحسان ..."!!!

إن أوربا التى صممت عام ١٨١٥، أن تمنع قيام أى بونابارت آخر يغزو ويفتح ويملأ الأرض دما وفسادا ..

أوربا هذه.. تحولت كلها إلى معامل تفريخ تتنافس فى تفريخ "بونابرت" لا حصر لها..!!!

والآن، لننظر كيف حدث هذا، وكيف مُلئ القرن التاسع عشر بالحروب، وبالبغى ..

وقبل هذا، نسأل: لماذا تقوم الأحلاف..؟؟ إنها قطعا لا تقوم لحماية الخير المشترك للناس جميعا.. إذ لو كانت هذه غايتها، لانتظم الحلف جميع الدول، وجميع الأمم.. وحلف من هذا النوع لا حاجة بالناس إليه لأن منظمة دولية تلتزم قواعد الحق والعدل والقانون كفيلة

بتحقيق الخير المشترك للشعوب ..

ولكن الأحلاف تقوم بين جماعة يريـــدون الظفــر بغنائم مشتركة..

ولما لم تكن الدنيا، هى هذه الجماعـــة وحدهــا.. فسيقوم فى بعض أركانــها الأخرى لا محالــة، جماعــة أخرى لها مصالح مشتركة، فتنتظم فى حلـــف آخــر.. وهكذا..

وهذه الأحلاف تشد أزر البغى والسطو لأن الدولـة التى لاتقدر على البغى منفردة..تواتيها الفرصة حين تجـد لها حلفاء ونصراء .

ولعل النـــزاع المرير الذى قام بـــين "كليمنصـــو"، و"ولسون" فى مؤتمر الصلح نشأ عن إدراك "كليمنصـــو" لهذه الحقيقة.. حقيقة أن فرنسا لم تـهزم ألمانيا إلا بقــوة حلفائها الكثيرين، أمريكا، وبريطانيا، وروسيا، وإيطاليـا، وغيرها..

وهو غير متأكد من أن تتاح الفرصة لفرنسا مـــرة

أخرى...؛ فهؤلاء الحلفاء التقوا على منافع ـ لامبادئ.. وقد تتضارب المنافع غدا؛ فلا يتفقون ..

وهكذا صمم على إرجاء النظر فى تشكيل عصبة الأمم كما يريد "ولسون" حتى ينتهوا أولا من تسويات الحرب، وحتى تحدد فرنسا غنائمها منها .

نقول: إن الأحلاف تقوم لتحقيق مآرب خاصة لمجموعة الدول المتحالفة. وهى بهذه المثابة لا تفرز سوى عداوات وريب. وتحرض على مقاومتها، وتحض على محاكاتها.. كما أنها بقيامها لحماية مصالح غير مشروعة، ومواقف عدوانية غير عادلة.. تتخذ غالبا نهجا مضادا لحقوق الإنسان .

وهكذا لم يكد "الحلف المقدس" يبدأ متوخيا المبادئ الخيرة، حتى عملت بريطانيا على إخفاقه، فرفضت توقيعه.. ثم عملت جاهدة لتحويله إلى حلف آخر باسم "الحلف الرباعى" أعضاؤه الدول الأربع نفسها.. ولم يخجل أصحاب هذا الحلف من أن يقرروا أن الغرض منه

هو"مقاومة المبادئ والحركات الثورية"..!

مع أن المبادئ والحركات الثورية يومئذ كانت تعنى محاولات الأمم الصغيرة، والشعوب المستعبدة أن تتمتع بحريتها واستقلالها.. وتغادر مكانها كحِلية فى تيجان الملوك والأباطرة الذين كانوا يستعبدون معظم شعوب العالم يومذاك.

وتحول "الحلف الرباعى" بدوره إلى حلف آخر هو"المحفل الأوربى" وفى هذا الحلف ظفر طاغية النمسا"مترنيخ" بجر أعضاء الحلف جميعهم إلى قمع كل الحركات الجماهيرية الساعية إلى الديمقراطية، والحرية ..

وهكذا أثمر هذا الحلف الثورات فى كل أوربا.. وهيأ أسباب حروب كثيرة ستنشب فى كل مكان، حتى تفضى آخر الأمر إلى الحرب العالمية الأولى .

* * *

فى عام ـ ١٨٦٢ـ نلتقى بـ"بسمارك" واقفا يخطب فى البرلمان البروسى ويقول:

"إن تخومنا الحالية كما أقرها مؤتمر فيينا غير ملائمة"
"لنا.. وعلى بروسيا أن تستجمع قواها، وتحـل"
"مشاكلها بالدم والحديد . . . . . "

وتبدأ فعلا جولة الدم والحديد. التى أنجبتها أحلاف فيينا وشومون، والحلف الرباعى، والمحفل الأوربى ..

يبدأ بسمارك بالنمسا.. ويجد نفسه فى حاجة إلى قوى تؤمن مستقبل الحرب بالنسبة له.. فيلجأ إلى الأحلاف ـ يحالف روسيا القيصرية ويحالف إيطاليا، ويضمن حياد فرنسا وبريطانيا.. ثم يضرب ضربته ..

وتنتهى الحرب بفوز بسمارك.. فيولى وجهه شطر فرنسا ويهزمها هزيمة ساحقة ..

ويتلفت القيصر، فيرى أن بسمارك قد أحسن استغلال تحالفه معه.. وأنه يبطش لا بقوته وحدها.. بل بقوة الحلف الذى يربطه وروسيا.. فيقرر هو الآخر أن ينتفع بمزايا هذا الحلف.. وفعلا يتقدم ويعلن الحرب على تركيا .

وفيما بعد تهتبل إيطاليا الفرصــــة، فتــهاجم هــى الأخرى تركيا، وتستولى على طرابلس ..

* * *

وينشأ حلف جديد، اسمه "حلف الأباطرة الثلاثــة" بين قيصر روسيا، وامبراطور النمسا، وامبراطور بروسيا.

وتتصادم المصالح بين روسيا والنمســـا. فيتقــوض الحلف ويقوم مكانه حلف "ألمانيا ـ النمسا".

ثم يقوم حلف بين بريطانيا وإيطاليا.. تبارك انجلــترا احتلال إيطاليا لطرابلس.. وتبارك إيطاليا احتلال بريطانيا لمصر..!!

وتنضم النمسا لهذا الحلف ..

ويحدث رد الفعل؛ فتسارع فرنسا وتبرم حلفا مـــع روسيا.

وفى نفس الوقت تبرم اتفاقا ســـريا مـــع إيطاليـــا، المشتركة فى حلف مع بريطانيا والنمسا.. ويقــوم هــذا الاتفاق السرى على أن تحتل إيطاليا تونس، وتحتل فرنسـا

مراكش..!!

وتفاجأ بريطانيا بخيانة حليفتها إيطاليا.. فتسارع إلى محالفة فرنسا.. وتبرم معها الاتفاق الودى المشهور عـام ـ ١٩٠٤ـ ويقضى بموافقة بريطانيا على احتـلال فرنسـا لتونس. واعتراف فرنسا بمركز بريطانيا فى مصر .

وتطمع بريطانيا فى مزيد من الغنـائم والنـهب.. فتبحث عن حلف جديد، ما دامت الأحلاف هى الطريق الأمثل لهذا ..

وهكذا تنشئ مع روسـيا حلفـا عـام ـ١٩٠٧ـ يقتسمان به بلاد الأفغان، والتبت، وإيران ..!!

وعند هذه النقطة يقف العالم كتلتين :

ألمانيا. إيطاليا. النمسا ـ فى جانب

بريطانيا . فرنسا . روسيا ـ فى جانب آخر

وفى هذين الحلفين تبلورت كل الأحلاف السـابقة. بما تنطوى عليه من غدر ولؤم ووصولية.. واقترب يـوم الفصل ..

وهكذا لم يطلع صباح ٢٨ يولية عام ١٩١٤، حتى كانت نواقيس الحرب العالمية الأولى تقرع مرجفة مزلزلة.

* * *

إن هذه اللقطة التاريخية التى سردنا فيها تسلسل الأحلاف ليست خالية من المغزى ..

وإن مغزاها لواضح مبين.. فهى ترينا كيف أن الأحلاف دائما أقرب الطرق إلى الحروب.. وكيف أنها تغرى بالحروب المحلية الصغيرة بين دولة وأخرى.. ثم لا تلبث حتى توقد نار حرب عالمية كبرى .

حدث هذا على النحو الذى أسلفنا ذكره بين يدى الحرب العالمية الأولى ..

وسنرى الآن.. نفس الشئ يتكرر وتتكرر معه نتائجه من عام ١٩١٩ حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

فعندما اجتمع ولسن، ولويدجورج، وكليمنصو فى مؤتمر الصلح لم يختلف مؤتمرهم كثيرا عن مؤتمر "فيينا" الذى انعقد قبلئذ بمائة عام بين اسكندر الأول،

وفردريك، ومترنيخ، وكاسلريه..!

ولم تشفع عظام خمسة وعشرين مليونا من ضحايا الحرب العسكريين والمدنيين.. لم تشفع لدى السادة المجتمعين ليحسنوا الإفادة من المحنة وليضعوا أسس سلام وعدالة.. بل إن"ولسن" نفسه بروحه الطيبة الخيرة. وبمبادئه السامية العادلة، صار موضع مناورات المؤتمر، وتندر المؤتمرين، وهدفا لإساءة حلفائه، سيما كليمنصو العنيد ..!

وراحت أوربا تنشئ أحلافا تلو أحلاف مهيئة الأسباب لحرب عالمية أخرى .

فسمعنا عن اتفاقية "سايكس بيكو".. واتفاقية "لويدجورج ـ كليمنصو" بشأن سوريا ولبنان ..

وسمعنا عن حلف مناهضة الشيوعية بين ألمانيا واليابان ـ عام "٣٨".

واتفاق الجنتلمان..بين إيطاليا وبريطانيا ـ عام "٣٨".

والحلف الدفاعى الهجومى بين ألمانيا وإيطاليا عام"٣٩" ثم محور ألمانيا ـ إيطاليا ـ اليابان ...

وسمعنا عن ـ الحلف البريطانى ـ التركى .

والحلف البريطانى الفرنسى ـ التركى ..

ثم حلف ألمانيا والاتحاد السوفيتى .

وكانت هذه الأحلاف جميعا تنطوى على ظاهرة محتومة هى ـ الإعداد للحرب ..

وبسبب هذه الأحلاف تمت جميع الحروب وغزوات الخطف التى سبقت الحرب العالمية الثانية، وكانت سببها الأول.

فخطف إيطاليا للحبشة، وغزو اليابان للصين، وخطف هتلر للنمسا، وتشكوسلوفاكيا، وبولندا،كل هذا تم فى ظل هذه الأحلاف .

وكما حدث قبيل الحرب الأولى من تركز الأحلاف فى معسكرين متقابلين. فى كل معسكر تقف دول كبرى تجاه دول كبرى نظيرها.. حدث نفس الشىء قبيل

الحرب العالمية الثانية.

فرأينا ألمانيا، وإيطاليا، واليابان ـ فى جانب

وبريطانيا، وفرنسا، ثم أمريكا فيما بعد ـ فى جـــانب آخر..

وكان لابد من حرب عالمية ثانية ..

وفعلا ـ قامت الحرب ...!!

وكان حصادها فادحا..

وعلى جبل عال من : ـ

اثنين وثلاثين مليونا ـ قتلوا فى معارك الحرب .

وعشرين مليونا ـ قتلوا فى الغارات .

وست وعشرون مليونـــا ـ قتلـــوا فى معســـكرات الإبادة.

وثلاثين مليونا ـ من المشوهين .

فوق جبل عال من جثث هؤلاء الضحايا.. التقـــى زعماء العالم، وتناقشوا، واجتمعوا..

فهل كانوا أكثر توفيقا وسدادا من الذين ســـبقوهم

فى مؤتمر "فيينا" ثم فى "مؤتمر الصلح"..؟؟

إذا كان التسابق على الأحلاف، هو المعيار الذى نقيس عليه سفه السياسة وطيشها. فكم نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن رصيد السياسة من السفه ومن الحمق لم تمسسه فواجع الحرب العالمية الثانية بسوء ولا نقصان..."!!!

أجل.. لقد بدأت جولة أخرى لسياسة الأحلاف وكأن عشرات الحروب الصغيرة، والحربين العالميتين الكبيرتين.. لم تكن كافية، ولا تزال غير كافية لنشدان حياة بلا حروب،وبلا أحلاف.؟!

- فى ١٢مارس عام ١٩٤٨. ألقى "ترومان"رئيس الولايات المتحدة يومئذ خطابا أعلن فيه أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تتوخى مساعدة كل أمة تدافع عن نفسها ضد أى تدخل ..

- وبعد هذا الخطاب بخمسة أيام لا غير(!) وقع فى بروكسل.. حلف دفاعى بين فرنسا، وانجلترا، وهولاندا،

وبلجيكا، ولكسمبورج..

• وبعد توقيع الحلف بساعات (!) وقف "ترومان" يخطب أمام الكونجرس مباركا الحلف وأهله ومعلنا أن "هذا التطور يستحق من الولايات المتحدة المساعدة الكاملة"..

• وبعد هذا الخطاب بأيام اقترحت لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى اشتراك أمريكا فى مواثيق الضمان الجماعى لحماية السلام العالمى (!)...

• وبعد ذلك بأيام، صار الاقتراح قرارا من قرارات الكونجرس وأعطى هذا القرار حكومة الولايات المتحدة حق"التوسع فى إنشاء التنظيمات الإقليمية"..؟

• وأخيرا... وفى ٤ إبريل ١٩٤٩ ولد الحلف الكبير"حلف الأطلسى"..ووقعته أمريكا وكندا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولاندا، والدانمارك، ولكسمبرج، والبرتغال، والنرويج، وإيسلندا..

وكما أن معظم الأحلاف التى قامت فى ظل"عصبة

الأمم المتحدة" كانت تنص على أنها تعمل داخل مبادئ العصبة وميثاقها.. فإن"حلف الأطلسى" والأحلاف التى ستقفو أثره.. لن تنسى أن تجامل"هيئة الأمم المتحدة" بتلك العبارة المهذبة .

"يؤكد أعضاء هذه المعاهدة إيمانهم بأغراض ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه (!) "

وكما أن معظم الأحلاف التى أشعلت الحروب السابقة، كانت تنص على أنها دفاعية.. كذلك أحلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية، تقسم بأغلظ الأيمان أنها دفاعية"..!

إن حلف الأطلسى. جاء امتدادا لسياسة الأحلاف السالفة.. امتدادا لمعاهدة "شومون"، و"الحلف المقدس"،و"الحلف الرباعى" وما جاء بعدها من أحلاف .

ولقد فتح الباب لأحلاف أخرى قام بعضها مقاومة له.. وقام بعضها الآخر تعضيدا له ..

فالاتحاد السوفيتى، ودول الكتلة الشرقية، رأت فى

هذا الحلف تحديا لها.

وفى ٣١مارس عام ١٩٥٤، تلقت حكومات أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا مذكرة من الاتحاد السوفيتى يطلب فيها الموافقة على انضمامه إلى حلف الأطلسى..

والاتحاد السوفيتى يعلم سلفا، أن نصوص هذا الحلف، لاتعطيه الفرصة التى طلبها.. ومع هذا تقدم بطلب الانضمام الذى كان نصيبه الرفض طبعا.. ولقد أحرج هذا الرفض حلف الأطلسى وأعضاءه أيما إحراج..

وفى ٢٣أكتوبر عام ١٩٥٤، وافق أعضاء الحلف على ضم ألمانيا الغربية إليه ..

وألمانيا. عدو لدود للاتحاد السوفيتى ولأوربا كلها ـ وهى دائما مصدر الخطر الأول لروسيا ولأوربا..

هنا لك دعت روسيا لمؤتمر "الأمن الأوربى"..ولكنه أخفق بسبب إعراض معظم الدول المدعوة إليه، ورفضها المشاركة..

وهنا.. وفى ١٤ مايو عام ١٩٥٥، ولد حلف كبير

آخر على غرار حلف الأطلسى.. هو "حلف وارسو"ـ! بين الاتحاد السوفيتى، وجميع دول أوربا الشرقية والديمقراطيات الشعبية.

وفيما بعد، يقوم حلف البلقان.، والحلف التركى الباكستانى، والحلف العراقى التركى، وحلف بغداد.. الذى أسموه أخيرا "الحلف المركزى".. وحلف جنوبى شرقى آسيا.. وتهيأ الأمور اليوم لحلف البحر الأبيض المتوسط.. هذا عدا المحالفات الكثيرة التى تقوم بين الدول بصورة ثنائية .

ما معنى هذا ..؟

معناه أن سياسة الأحلاف والتكتلات، لاتزال تحتل بؤرة التفكير ..

ومعناه أيضا أن خطر الحرب والانقسام والدمار، يعود فى صحبة هذه الأحلاف ليسلب العالم سكينته وطمأنينته .

أَرْبــــــــابُ الأَرض ..!

على صعيد السياسة العالمية، لم يكـــن رأس المـــال، والأحلاف يعملان وحدهما لإفساد العلاقات الإنســـانية، وتدميرها.. بل كان هناك معهما، النزاع على السيادة ..

وفى عصور خلت، كان النزاع على السيادة محليـــا، ومحدوداً بعض الشيء.. يوم كان العـــالم عـــوالم شـــتى متباعدة .

أما اليوم، وقد امتزج عالمنا، واقـــتربت مســـافاته، فالسيادة الآن تريد أن تشمله جميعا.. ومن ثَمَّ فالتنـــازع على السيادة اليوم خطر وعنيد.

مَن الدولة التى تسود..؟ من الدولة التى تكون لهـــا

الكبرياء فى الأرض..؟

هذان السؤلان مهَّدا دوما، وفى كل العصور لقيام ما نسميه بالدول الكبرى.

والحرص على بلوغ هذا الوصف. سبب كثيرا من الشقاء لعالمنا ..

من أجل هذا تتحتم على البشرية الحديثة التى تنهض اليوم لبناء نفسها، أن تشيِّع خرافة"الدول الكبرى" إلى القبر وتزف أرباب الأرض إلى مصيرهم المحتوم، وأن يعلن العالم نفسه، عالماً بلا أرباب.

ويبدأ هذا بأن نعرف الفلسفة التى تقوم عليها نظرية "الدول الكبرى"..

هناك فى تاريخنا البعيد، والقريب، والمعاصر، تعبير سياسى مهذب اسمه"حفظ التوازن" ..

ولحفظ التوازن هذا، فى التاريخ السياسى لعالمنا طرائف وذكريات .!

"فبسمارك" برر كل حروبه، وغزواته بحفظ

التوازن..!

ومترنيخ ساد أوربا بطغيانه أكثر من ربـــع قــرن، وفرض عليها سيادة النمسا وربوبيتها باســـم "حفــظ التوازن"..!

وبريطانيا انتهبت امبراطورية لا تغيب عنها الشـمس باسم "حفظ التوازن" ..!

وفرنسا ملأت الأرض دمًا باسم"حفظ التوازن"..!

وكانت كل دولة كبرى تتنقل من حلف إلى حلف، وتعادى اليوم صديقها بالأمس، وتصادق غدًا عدوهـــا اليوم ـ لا باسم النفاق والوصوليـــة، والمنفعــة.. بــل باسم"حفظ التوازن"..!

وحين طرد العرب من بلادهم وديارهم، وأخرجــوا من أرزاقهم وأقوات عيالهم فى فلسطين.. تقدمـــت دول كبرى وتعهدت باحترام هذا الوضع"!" باســـم "حفــظ التوازن"..!

وحين منع الغرب عنا أسلحة دفعنا ثمنها. برر هـــذا

المنع بــ"حفظ التوازن" ..!

ماذا يعنى "حفظ التوازن" هذا ..؟

إنه يعنى الاحتفاظ بحقوق الزعامة، وحقوق السيادة، وحقوق التفوق والتأله، لدول تريد أن تعيش دائماً فــوق الدول، وفوق الجميع ..

وكل دولة كبرى تجعل شعارها "لا مكان لاثنـــين هنا".. وهنا فى رأيها تعـــنى العـــالم.. تعـــنى أرض الله الواسعة.

ولهذا نجد الاتفاق بين دولة كبرى، وأخرى مثيلــها، كان يقوم فى التاريخ كله على أسس تبعد تمام البعد عــن المبدأ.. وعن العدل..

ونجد أيضًا أن معظم ما حاق بالعالم عـــبر التـــاريخ كله، من مصائب وكوارث، تم على أيدى دول أسكرها وأعماها الشعور المتفاقم بالسيادة والاستعلاء .

والدول الكبرى، هى التى أرهقت بسياسة الأنانيـــة والكذب عالمــًا مسكينًا.

لقد اجتمع فى مؤتمر "فيينا" الذى أعقب الحـــروب البونابارتية ـ أربعة كبار ـ .

هم: روسيا، بروسيا، النمسا، بريطانيا ..!

واجتمع فى مؤتمر الصلح الذى أعقب الحرب العالميـة الأولى ـ ثلاثة كبار ـ ..

هم: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا ..!

واجتمع غداة الحرب العالمية الثانية ـ أربعة كبار ..

أمريكا ـ روسيا ـ بريطانيا ـ الصين ـ..!

* * *

أما الأربعة الكبار الذين اجتمعوا فى مؤتمر فيينا، فقد اقتسموا العالم قسمة، أشعلت الثورات والحروب فى كـل مكان.. بسبب إصرارهم على امتيازاتـــــهم الظالمـــة، وبسبب ضربـــهم بحقوق الـــدول الصغـــرى عـــرض الحائط.. ومن الطريف أنـــهم قالوا فى ديباجة اتفاقـــهم المكتوب يومئذ، إنـــهم يفعلون هذا "حفظًـــا للتـــوازن الدولى"...!

وأما الثلاثة الكبار الذين اجتمعوا غـــداة الحـــرب العالمية الأولى فقد تنكروا لكل حقـــوق الإنســـان.. أو بتعبير أكثر أمانة وصدقا ـ نقول "إن اثنين منـــهم همـــا بريطانيا وفرنسا، تنكرتا لكل ما هـــو حـــق، وســـار سلوكهما. وكأنـــهما فى مؤتمر حرب ـ لا مؤتمر صلح .

والحرب التى كانتا تجلسان فوق كومة عاليـــة مـــن أنقاضها. وضحاياها، لم تلهمهما حكمة وعدلا، فوقفتـــا توزعان العالم من جديد، وضاع فى ضجة أطماعـــــهما صوت حليفهما"ولسن" الذى حاول عبثـــاً أن يحمـــى حقوق "الإنسان" وينقذها من أنياب حليفيه الكبـــيرين.. وكان عاقبة مسعاه، وجـــهود بـــلاده فى الحـــرب، أن تحداه"كليمنصو" وقال له، وهو ضيف عليـــه فى بـــلاده فرنسا..

"إذا لم توافق ياسيدى على ما نريده، فإنك تستطيع"
"أن تعود إلى بلادك.. !!! . . . . . . "

وانتهى مؤتمر الكبار الثلاثة نهاية مشابهة لمؤتمر الكبار

فى فيينا..

وأما الكبار الذين اجتمعوا غداة الحـــرب العالميــة الثانية؛ فقد بدا بأسهم بينهم شديدًا.. ولم يستطيعوا وهم يخططون عالم ما بعد الحرب،وينشئون "مجلســاً للأمــن" يحمى مصير العــالم.. لم يســتطيعوا أن يتخلــوا عــن كبريائهم، فابتدعوا ما أسموه "حق الفيتو"..

ولمن حق الفيتو هذا ..؟؟

إنه للكبار وحدهم ..

ولقد حدث أن استعمل "الفيتو" لنقــض قــرارات ظالمة، وأنقذ استعماله بعض الأمم الصغرى من مؤامـرات كانت تحاك لها ..

ولكن حدث أنه كذلــك اســتعمل، ويمكــن أن يستعمل لدعم مراكز الوثوب والعدوان التى تخص بعــض الدول الكبرى.

ومهما يكن من شيء، فإن عجز الدول الكبرى على أن تلتقى فى غير ريبة ودخَل، هو الذى حرم العالم من أن

تخلُص له إحدى مؤسساته الكبرى من مثل هذه القيـــود المعوقة العجيبة.

إن إحساس دولة ما بأنــها كبرى.. وحرصها على أن تظل كذلك يحضها دوما على الاحتفاظ بمزايا هـــذا اللقب وهذا الوضع.

ولما كان وجود دول كبرى، لا يتأتى إلا إذا كـــان هناك دول صغرى"!" فإن ذلك يعنى لا محالة قيام تمـــايز مستمر وتفاوت دائم بين الكبرى والصغرى ..

ويعنى كذلك دعم الشروط التاريخية التى تســـتبقى الدول الصغيرة صغيرة.. لتظل معالم الامتياز والتفوق مـن نصيب الدول الأخرى الكبرى ..!

ولنسأل الآن سؤالا :

ما هى الاعتبارات التى تجعل الدول الكبيرة كبيرة..؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، توضح لنا المضمـــون السياسى لاصطلاح "الدول الكبرى".

وأمامنا مثال كبير الدلالة يصلح أن نبدأ به الإجابـة،

بل يصلح أن يكون هو الجواب .

فالصين الوطنية، الـــتى كـــان يرأســـها "شـــيانج كاى‌شيك" كانت إحدى الدول الكبرى غداة الحـــرب العالمية الثانية فهل كان لها من خصائص الدولة الكـــبرى شيء، حتى استحقت هذا الوضع..؟

كلا ..

لم يكن لها جيش قوى، ولا أساطيل ..

لم يكن لها صناعات، لا خفيفة ولا ثقيلة ،..

لم يكن لها موارد الدولة الكبرى ..

وشعبها، كان متخلفا، وأميا.. عشرة فى المائة منـــه هم الذين يقرءون ويكتبون ..

وأما الحكومة، فقد شاع فيها من الفساد، والانحلال ما جعـــل كبار القـــواد الأمريكان أنفسهم يصفونـــــها بأقذع الأوصاف.

فكيف إذن كانت إحدى الدول الكبرى..؟

ألأنـــها خاضت الحرب فى صف الديمقراطية..؟

هناك دول كثيرة خاضت الحرب مع الديمقراطيـــة، وكانت حكوماتها أكثر ولاء للديمقراطية وللحكم الصالح من حكومة السيد.."كاى شـــيك".. ثم لم تصـــر دولا كبرى.. بل لم تســـتطع أن تحتفـــظ بحقـــوق الـــدول الصغرى..!!

على أن للمسألة بقية جديرة بإعمال الفكر .

فالصين الوطنية هذه اختفت ذات يوم، وانكمشـــت فى جزيرة "فرموزا" ..

ونـــهضت"صين" أخرى تنتظم ســـتمائة مليـــون إنسان لها جيش قوى.. لها صناعات كـــبرى، خفيفـــة، وثقيلة.. لها زراعة حديثة، وإنتاج هائل ..

ومع هذا، فهى لم تأخذ مكانـــها بين الأربعة الكبار فحسب، بل وحرمت من الحق الذى تتمتع به دويـــلات لا يزيد تعداد أهلها عن ربع مليون نفس ..!

أجل حرمت الصين من أن تكون عضواً فى هيئـــة الأمم المتحدة ..!!!

فلماذا ..؟؟

ألأنــــها شيوعية ..؟؟

فى هيئة الأمم المتحدة دول شيوعية..بل فيها جميـــع الدول الشيوعية ..

لماذا إذن ..؟؟

هنا يبرز"حفظ التوازن" بمضمونه الخبيث..

وهنا يتجلى المفهوم الصحيح لاصطـــلاح"الـــدول الكبرى" كما تفهمه وكما تريده بعض الدول الكبرى .

فالصين الشعبية، أخلت بحفظ التوازن الاقتصــــادى للولايات المتحدة ..

والصين القوية، أخلت حفظ التوازن السياســــي فى آسيا بالنسبة للولايات المتحدة أيضاً..

وإذن، فليس جزاؤها أن تحرم صفة الدولة الكبـــيرة فحسب..بل أن تحرم أدنى حقوق وجودها السياسى فـــلا تكون عضواً فى هيئة الأمم التى تضم جميع الأمم ..!

* * *

منذ القرن التاسع عشر، وأمريكا تحافظ على الصين، وتدفع عنها كل غزو.

وحين نطالع تاريخ السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى ذلك القرن وما بعده، تستوقفنا ظاهرة هامة هى إصرار الولايات المتحدة على مقاومة كل محاولة للسيطرة على دول أمريكا الجنوبية.. وعلى الصين ..

وهذا الموقف واضح بالنسبة لأمريكا اللاتينية، باعتبارها امتدادا طبيعيا للوحدة الأمريكية الشاملة ..

لكن ما سر هذا الاهتمام العظيم بالصين ..؟

أجل.. لقد رُسمت السياسة الأمريكية فى آسيا على أساس حفظ الصين من كل تدخل.. وعلى أساس الإجهاز على اليابان كدولة متفوقة صناعياً وعسكريا..!!

فلنحاول أن نفهم هذا اللغز العجيب ..

إن الصين سوق هائلة إذا أُحسن إنعاشها وإذا ظلت بعيدة عن الارتباط بمُصَدِّرين آخرين مثل بريطانيا وفرنسا مثلا حتى يأتى دور أمريكا.. فان ذلك يكون خيراً

عظيما للاقتصاد الأمريكى ..

واليابان دولة أسيوية، ومتاخمة للصين فإذا نهضـــت عسكريا وصناعيا..سبقت أمريكـــا إلى هـــذه الســوق وحرمتها منها..

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر.. فأمريكا لا تقبـــل أن تقــوم فى المحيط الهادى فى الشرق الأقصـــى ـ أمريكـــا أخـــرى ـ أسيوية.. تضارعها أو تكون يوماً ما مصدر خطر عليـــها سواء كان هذا الخطر عسكرياً أم اقتصادياً .

ومن هنا، قبلت، بل عملت على أن تكون صـــين "كاى شيك" دولة كبرى.. مع فقدانها لكل خصـــائص الدولة الكبرى.. ورفضت أن تكون الصين الشعبية مجـــرد عضو فى هيئة الأمم، مع تمتعها بمعظم، بل بكل خصائص الدول الكبرى ..!

وبقيام نظام اشتراكى فى الصين، أفلت من التجـــارة الأمريكية ستمائة مليون زبون .

أليس هذا كافيًا لفقدان التوازن.. وكافيـا بالتـالى لاضطهاد الصين إنقاذاً لما يمكن إنقـاذه مـن "حفـظ التوازن"...؟؟!!!

هناك صحفى أمريكى شهير اسمه "ارنست لنـدلى" كان وثيق الصلة بالبيت الأبيض أيام "روزفلت" .

ولقد كتب يقول :

"لقد كان المستر روزفلت يذهب دائماً إلى أن الصين "
"ـ يقصد الصين القديمة ـ يجب أن تعامل كدولة . . . "
" من الطبقة الأولى وأنـها ستكون فى مدى جيل . . "
"أو جيلين من دول الطبقة الأولى بالفعل . . . ."

ومعنى هذا الكلام مـن روزفلـت، أن الولايـات المتحدة كانت تبنى تقديرها على أن الصين ستظل بحاجـة إليها وإلى صناعاتـها وإنتاجها مدى جيل أو جيلين .

ولكن ما حدث عام ١٩٤٩، من اختفاء آخر ظلال الصين القديمة، وقيام حكومة اشتراكية فى الصين كلـها خيب الآمال.. ودعا أمريكا إلى شد زناد حفظ التـوازن

شدا غير مأمون العاقبة.

ويمكن أن نلتمس تفسيرا آخر لموقف أمريكا من الصين واليابان.. فنقول: إنها ناهضت اليابان لعدوانها ونزعاتها الاستعمارية.. وإنها عاشت تدفع عن الصين كل غزو خارجى تمشيا مع مبادئها الإنسانية التى خلفا لها واشنطن، ولنكولن، ومونرو ، وولسن ..

أقول: يمكن أن نلتمس مثل هذا التفسير، بل بودنا أن نلتمسه، لو تستطيع الولايات المتحدة أن تقدم تفسيرا معقولا لموقفها من الصين الشعبية اليوم.. وإبطالها كل محاولة لضمها إلى هيئة الأمم المتحدة .

* * *

نحن لا نكتب هذا للتجريح.. ولا يخطر ببالنا ونحن نسطر كتابا يهتف بالإخاء الإنسانى أن نخط كلمات تحمل الضغن أو تريد الإساءة ..

ولكن مواجهة الوقائع التاريخية أمر ضرورى لكل محاولة صادقة تريد إخراج عالمنا من أحقاده وخلافاته .

لقد كان ينبغي بعد قيام"هيئة الأمم المتحدة" ألا يبقى فى العالم سوى دولة كبرى واحدة، هي "الأمم المتحدة" نفسها.

لست أعني أنها ستتحول إلى دولة، بكل مقومات الدولة.. بل أعني أنها كمنظمة، يجب أن تأخذ وحدها المكان الأول والأعلى ويجب أن تنتقل إليها كافة حقوق السيادة العالمية، لتقترب بنا من أيام الخلاص .

أما أن تقوم "أمم متحدة".. ثم تنهض إلى جوارها، بل ومن فوقها "دول كبرى" فإن مصالح هذه الدول الكبرى ستفرض نفسها على هيئة الأمم، ولقد حدث هذا عشرات المرات.

فالأمم المتحدة ـ عجزت عن وقف اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها؛ لأن"دولاً كبرى" أرادت هذا..!

والأمم المتحدة ـ عجزت عن إفساح مكان لستمائة مليون صيني؛ لأن"دولا كبرى" أرادت هذا ..!

والأمم المتحدة ـ لم تمنع ضرب كوريا.. بل ساهمت

فيها لأن"دولا كبرى" أرادت هذا ..!

والأمم المتحدة ـ لم تستطع حتى اليوم أن تمنع سـباق التسلح؟ لأن "دولاً كبرى" تريد هذا ..!

ليس يخطر ببالنا أن نُضَائِل من قيمة الأمم المتحـــدة بسبب هذا العجز.. ولسنا ننسى المواقف الجليلة البـــاهرة التى أملت فيها مشيئتها..

ولكننا ندرك أن خضوعها ـ أحيانا ـ لتأثير بعـــض الدول الكبرى، يعتاق الكثير من جهدها البار، ويعطـــل الكثير من رسالتها الجليلة.

وهذا ما نعنيه وما نحاول دحضه عنها.

* * *

وثمة خطر آخر يفضى إليه قيام دول كبرى.. ذلـــك هو: التسابق فى التسلح..

يجب أن ندرك جيدًا ـ أن المؤتمرات غير كافيـــة فى وقف التسلح.. فللتسلح مقدماته التى تجعل منه نتيجتـــها المحتومة.. ومن هذه المقدمات وجود نظام عالمى يســـمح

بقيام "دول كبرى"..

فعل رأس خصائص الدول الكبرى ـ يقف التفوق العسكرى.

وكل دولة تريد أن تكون كبرى، تعلم علم اليقين أن ذلك رهن بتفوقها فى أسلحة الفتك، وبناء الأساطيل، وإعداد الجيوش.

هذه بديهة لا تحتاج إلى بيان .

ولقد عبر عنها أصدق تعبير"ونسن تشرشل"فى كتابه "الأزمة العالمية" حيث يصف زيارته لبورتلاند، وانبهاره بسفن الأسطول البريطانى هناك :

يقول "تشرشل":

"على هذه السفن العظيمة، رأيت شوكة الامبراطورية"
"البريطانية وجلالها، وسيادتها، وقوتها. . . . . . "

ثم يقول :

"افتحوا صمامات البحر.. ودعوا هذه السفن تغرق . . "
"تحت الماء .. وفى بضع دقائق .. فى نصف ساعة . . "

"على الأكثر ، يتغير وجه العالم ، وتتلاشى . . . . . . "
"الامبراطورية البريطانية كحلم .. ، وتتحطم قوة . . . "
"سيدة البحار . . . . "

وعبر عنها :هتلر" حين قال :

"يجب أن نسبق العالم كله فى التسلح إذا أردنا أن . . . "
"نحقق عظمة الأمة الألمانية . . . . "

وعبر عنها "موسولينى" بكلمته المشهورة التى ألقاهـا من فوق "فوهة مدفع" .. وهى :

"الويل للأمم غير المسلحة . . . . "

والتاريخ يمدنا بكل الوقائع والشواهد التى تقنعنا بـأن قيام"دول كبرى" لا يمكن أن ينفصل بحال عن التســـابق الجنونى فى التسلح..

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارهـــا ــ عرض "ولسون" نقاطه الأربع عشرة المشهورة.. وكـانت النقطة الثانية منها ـ حرية البحار ـ ووقفـــت بريطانيــا تنافسها طويلا.مما اضطر مستشار ولســـن أن يعلـــن أن

الولايات المتحدة لن تسلم عن طيب خـــاطر بســيادة بريطانيا على البحار.. كماأنها لاتسلم بسيادة ألمانيـــا فى البر، وإذا أصرت بريطانيا على سيادة البحار؛ فإن أمريكا ستبنى أسطولا ينتزع السيادة منها ...

أبلغت حكومة لنــدن هــذا التوضيــح؛ فثــارت ثائرتــها، ووقف رئيس وزرائها "لويدجورج" يقول :

"إن بريطانيا العظمى ستنفق آخر جنيه لديها للاحتفاظ"
"بأسطول يفوق أسطول الولايات المتحدة . . أو أى "
"دولة أخرى، وليس فى وسع أية وزارة بريطانية . . . "
"أن تبقى فى الحكم يوماً واحداً . إذا هى اتخذت . . ."
" موقفا مغايرا . . . . "

* * *

إن أمريكا ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكــون لهــا أسطولها الكبير وعتادها الكبير ..

ومن ثم سارعت فى غير كلل وفى غير بخل ، لبنــاء الأساطيل وإنتاج العتاد ..

واليابان ، ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكـــون لهـــا أسطولها، وعتادها ..

وهكذا سارعت هى الأخرى تسابق بريطانيا نفسـها حتى صار لها أسطول يماثل أسطولها .

وفى عام ـ ١٩٣٨ـ ألقى رئيس الاتحـــاد الســوفيتى "كالينين" خطابا فى اجتماع عمـــال الســفن بمدينــة "ليننجراد" قال فيه..

"حتى اليوم، لم تتفوق، دولة على بريطانيا ويجب . . "
"علينا أن نتفوق عليها . . . . "
"إن انجلترا ، أقوى بلد رأسمالى ونحن أقوى بلد . . . "
"اشتراكى إننا سندخل فى منافسة مع أقوى الدول "
"الرأسمالية. وكل منها يمتلك أساطيل كبرى . . . . ."
"فعلينا أن ننشئ أسطولا يتفوق على أساطيلها . . . "
" جميعًا . . . . "

وأعلن مولوتوف :

"أن الدولة السوفيتية القوية ، يجب أن تملك . . ."

"أسطولا بحريًا جديرًا بقضيتها الكبرى وبمصالحها"

وقام "الاتحـــاد الســـوفيتى" فعـــلا بإنشـــاء وزارة للأسطول.. ولم يطلّ هلال عام ١٩٣٩ حـــتى كـــانت روسيا تملك من الغواصات أكثر مما تملك ألمانيا، واليابـان معًا ..

لقد فرضت تبعات التفوق نفســـها علـــى الـــدول الكبرى جميعاً.. فأمريكا، وبريطانيا،وفرنســـا، وألمانيـــا، وإيطاليا، واليابان.. تتنازع الصدارة والسيادة، ومقتضـــى هذا أن تحرز كل منها أقصى تفوق عسكرى ممكن ..

والاتحاد السوفيتى الذى يقف يومئذ وحده تجاه كـــل هذه الترسانات الكبرى، يجب أن يحرز أقصـــى تفـــوق عسكرى ممكن..؟؟

وبـــهذه الطريقة ذهب، ولا يـــزال يذهـــب مـــن الأموال ما لو أنفق سدسه على تعمير العالم، لجعل مـــن أرضنا هذه فردوسا بـــهيجًا..!

إن من المؤسف حقـــًا، أن نتقبـــل نظـــام"الـــدول

الكبرى" كما لو كان ضرورة تاريخيـــة.. وأن نســكت عنه، كما ما لو كان خيرًا وبركة.

ونحن لا نسكت عنه فحسب؛ بل نحـــاول تنميتـــه وتضخيمه ببناء كتل تسيطر على كل منها دولة كبرى.

لقد أراد كاتب أمريكى كبير هو"والترليمـــــان" أن يعالج السلام العالمى، فدعا إلى تقسيم العالم إلى جماعـــات ومدارات ..

ففى كتابه "الولايات المتحـــدة وغاياتـــــها مـــن الحرب"، وقد نشر له ملخص كامل باللغـــــة العربيـــة، يدعو"ليمان"إلى إنشاء"جماعة المدار الأطلسى"، و"جماعـــة المدار الروسى"، و"جماعة المدار الصينى"..

ولقد اقتنعت حكومة الولايات المتحـــدة بدعوتـــه، وأنشأت "حلف الأطلسى" .

وهو يرى أن صلات الود والتعاون بين الجماعـــات الثلاث، أو المدارات الثلاث، مدار الأطلســـى، والمـــدار الروسى، والمدار الصينى.. كفيل بتوطيد أركان السلام .

وهو يصرح كذلك بأن مدار الأطلسى ستنتزعمه دولة كبرى هى أمريكا ..

وتتزعم المدار الروسى دولة كبرى هى: روسيا .

وتتزعم المدار الصينى دولة كبرى هى: الصين .

ولا ندرى: هل لايزال عند رأيه بشأن "المدار الصينى" بعد قيام الصين الشعبية، أم لا..؟ "!" .

مثل هذا التفكير الذى أعلنه أكبر كتّاب أمريكا السياسيين. والذى يؤثر تفكيره فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة تأثيراً ملحوظًا... مثل هذا التفكير لايزال يسيطر على الإدراك السياسى لكثرة كاثرة من سكان الأرض. وليست خطورته فيما ينطوى عليه من خطأ فحسب، بل وفى إضعاف الثقة بالمنظمات العالمية التى تحاول البشرية عن طريقها أن تضع حداً لمآسيها ومصائبها .

ففى ١٥ يونيه عام ١٩٤٤، صرح الرئيس "روزفلت" أنه يعتمد فى صيانة السلام على:

"قوة مادية منظمة لهيئة عالمية تسيطر عليها الـــدول الكبرى..!! "

وكانت الدول الكبرى يومئذ هى:الولايات المتحــدة ـ والاتحاد السوفيتى ـ وبريطانيا ـ والصين الوطنية ..

وصرح"روزفلت" يومها بأن الدول الكـــبرى الــتى ستسيطر على الهيئة العالميــة، تكـــون بمثابـــة "بوليـــس السلام".. وأما بقية أمم العالم، فهى الشعب، أو الجمهور الذى ينظمه هذا البوليس ..!

وقبل هذا بعام واحد ـ أعنى عـــام ١٩٤٣ـ اقـــترح وزير بحرية أمريكا لصيانة سلام العالم، أن تقتسم أمريكـا وبريطانيا بحار الدنيا .."!"

يتولى الأسطول الأمريكى حراســة غـــربى المحيـــط الأطلسى، والمحيط الهادى بأسره ..

ويتولى الأسطول البريطانى حراسة المحيط الهنـــدى، والبحر الأبيض المتوسط، وشرقى المحيط الأطلسى ..

هكذا تقود نظرية "الدول الكـــبرى" إلى التخبـــط

الشديد والأكيد.. وفى الوقت الذى يحسب معتنقوهـــا أنـــهم يصونون السلام، يكونون موغلين فى الأســـباب التى تقوض السلام .

ولو أن الحرص على زعامة الدول الكبرى يـــأتى فى المرتبة الثانية من محاولاتنا لصون السلام، لهان الأمر بعض الشىء ..

أما أن يضعه أصحابه فى المرتبة الأولى، فهذا ما يجعل تفنيده ودحضه واجبا محتوما.

لقد اعتمدت السياسة الدولية على نظـــام"الـــدول الكبرى" من مؤتمر فيينا عام ١٨١٤، حتى الحرب العالميـة الثانية.. فماذا كانت العاقبة..؟

كانت حروبا موصولة.. وظلما، وبغيا، واستعمارًا..

وكانت الدول الكبرى.. بمناطقها وتكتلاتـــــها، عصابات خطيرة ملأت الأرض، خرابا وبغيا.. أفنعـــاود الكرَّة بعد كل تلك المثلات..؟؟

أفنترك الأوضاع هكذا.. دول كبرى تقـــود، ودول

صغرى تُقاد ..؟

لا.. وإن من أهم واجبات عالمنا الحديث أن يصفى هذا النظام تصفية كاملة، وأن يستقبل عصوراً جديدة لا تكون السيادة فيها للدول الكبرى.. بل للدول جميعا.. للبشرية جميعا.

* * *

ترى، هل يعنى حديثنا هذا، تجاهل الظروف الحضارية التى تجعل من بعض الدول..دولا كبيرة أى متفوقة تفوقا حضاريا.. وأخرى صغيرة.. أى بادئة فى الأخذ بأسباب الحضارة ..؟

كلا . بيقين ..

ولسنا ننكر أبدًا فضل بعض الأمم على بعض.. وسبق بعضها لبعض ..

وإنما ننكر"المفهوم السياسى" لوضع الدول الكبرى..

هذا المفهوم الذى يعنى أوضاعا خاصة، وامتيازات خاصة، وحقوقا خاصة، لهذه الدول المنعوته بالكبرى ..

والذى يعنى بالتالى تقسيم العالم إلى سادة، وتـــابعين. إلى أوصياء، وقاصرين ..







مِحْنَةُ الضَمِير السيِّــاسِى









خلال الظروف التاريخية التى أسلفناها، تشكل ضمير سياسى مراوغ ومريض .

ضمير تغذى بجميع الإفرازات الضارة التى أفرزها تكالب المال وسياسة الأحلاف، ونشدان المآرب الخاصة.

لم يتح للضمير السياسى أن يؤدى واجبه تجاه المبادئ الإنسانية الرشيدة التى اكتشف الإنسان قيمتها، وأهميتها. وانحرفت به ظروفُ تكونه شطر الكذب، والغدر، والوصولية. تلك العناصرالأساسية للسياسة العالمية من عهد بعيد.

نحن نؤمن بتقدم الإنسانية، ونؤمن بأن البشرية تسير

إلى الأمام، وإلى الأفضل دوما .

لكن ذلك لا يعنى أنـــــها مـــبرأة مـــن الآفـــات والنقائص، كما لا يعنى أن ندفن رءوسنا فى الرمال حـــتى لا نرى تلك الآفات .

إن مواجهة الخطأ جزء من الصواب. وإدراك ما هـــو سئ يمثل الخطوة الأولى للظفر بما هو حسن .

وإذا كانت البشرية تتقدم دوما على الرغم مما تمتلـــئ به حياتـــها من مثبطات ومساوئ.. فكـــــم ســـيكون تقدمها عظيما وباهرا، إذا نفضت عن نفسها الكثير مـــن تلك المثبطات.

والضمير السياسى العالمى، إحدى القوى العاملـــة فى الحياة الإنسانية وإن له لمواقف طيبة تغرى بالاعتماد عليـــه فى تقويم كثير من العوج ..

ولكنه يعمل بمعشار طاقته لا غير.. لأنـــــه لا يـــزال مكبلا بكثير من رواسب الأزمان الخالية .

لقد حاق به من مؤامرات التجــــارة، والأحـــلاف

والدول ذات السيادة والعلو. مـــا أشـــقاه وجرفـــه إلى الضلال ولكننا حين نستطيع تنقيته من تلك الرواســـب، وحين تطهر السياسة نفسها من أكاذيبها، وضلالها فـــإن هذا الضمير قادر حينئذ على الإسهام فى بناء رأى عـــام عالمى، يصون قيم حضارتنا، ويؤمِّن مستقبل نوعنا ..

* * *

وعلى طريقتنا فى الفصول السابقة، سنحاول هنـا أن نكشف عن انحرافات الضمير السياسى، لنرى مبلغ مـــا يحدثه فى تقدمنا من تخريب.

وسنسير أيضًا عبر التاريخ الحديث، لـــنرى كيـــف تشابـــهت ألاعـــيب السياســـة، وبـــهتانـــها، وكيف تكرر نفسها فى مجالات السطو، والغرور، وكيف تَعـاون الضمير السياسى المريض مع رأس المال، ومع الأحـــلاف على استعمار الشعوب، وتشتيت الصف البشرى .

* * *

فى ـ عام ١٨٦٣ـ نشبت ثورة بولندا الكبرى ضـــد

قيصر روسيا ووقفت أوربا تؤيد الثورة.. لكن"بسمارك" وقف فى نشوز عجيب يؤيد القيصر ضد شعب بولندا، وضد ثورته، وضد حقوق الإنسان كلها. حتى لقد سمح لجيوش القيصر أن تخترق بلاده "بروسيا" متعقبة الثوار الذين هربوا إليها .

أما لماذا وقف"بسمارك" هذا الموقف، فهنا نلتقى بمأساة الضمير السياسى لأوربا .

لقد كان "بسمارك" يعد نفسه سراً لغزو النمسا، ومن بعدها فرنسا وهو يريد أن يأخذ إلى جانبه قيصر روسيا، لكى يربح هاتين الحربين.

من أجل هذا رأى أن يُسلف للقيصر جميلا كبيرا هو تعضيده فى إطفاء ثورة شعب يطالب بحريته ..

فالحرية، والحق، والعدل، وكل حقوق الإنسان، مسائل ثانوية بالنسبة لبسمارك، وبالنسبة للضمير السياسى المنحرف..

ولقد حدث ما رسم له بسمارك خطته.. فحين

هاجم النمسا وقف القيصر معه.. ووقفت إيطاليا أيضـاً معه، بعد أن وعدها بالبندقية.

وفى هذه الحرب كذلك، وقف يبارك احتلال فرنسا لتونس، ويشجعها عليه، لأنه يعلم أن احتلالها لتونـس، سيسخط عليها بريطانيا.. وراح يشجع بريطانيا علـى احتلال مصر، لأنه يعلم أن هذا يسخط عليها فرنسـا.. وهو يعلق على خلافهما آمالا كبارا .!

وبعد أن ينتهى من حرب النمسا ويهزمها، يتجـه شطر فرنسا،ويهزمها هزيمة ساحقة.. ولكنه قبل أن يبـدأ الحرب معها يغرى النمسا بالزحف إلى البلقان، ويعدهـا بالمساعدة. وذلك كى يتقى احتمال هجومها عليه أثنـاء حربه مع فرنسا.!!

هذا هو الضمير السياسى الذى قاد قافلة السياسـة، حاملا لواء الأنانية المسعورة، والغدر الرخيص.!

* * *

وثمة مثال آخر، كله عبرة وحكمـة،هـذا المثـال

هو"حرب القرم".

ذات يوم، أرادت روسيا القيصرية أن تحقق أطماعها فى تركيا.. وبحثت عن سبب يبرر عدوانها التى وضعت خطته، فماذا كان السبب.؟

لقد أعلنت أنها ذاهبة إلى تركيا، لحماية المذهب الأرثوذكى، الذى تدين به جماعات كثيرة فى الدول العثمانية .!

ورأت"فرنسا" أن تدخل روسيا باسم الدين قد نجح وآتى ثمره، فقررت أن تأخذ نصيبها من الغنيمة .

ولكن بأى حجة كاذبة تتدخل ، وتعتدى _ ؟؟

المسألة سهلة ..!!

إن روسيا تدخلت لحماية الأرثوذكس.. فلتتدخل فرنسا لحماية الكاثوليك ..!!

وهكذا تقدمت إلى تركيا بمذكرة ضافية، ضمنتها، أن"هارون الرشيد"كان قد سلم مفاتيح المسجد الأقصى إلى "شارلمان" .. كما أن"سليمان القانونى" اعترف

لحليفه يومئذ "فرنسوا الأول" ملك فرنسا. بحق فرنسا فى حماية كاثوليك الشرق العربى كله ..!!!

بقيت بريطانيا، فماذا هى صانعة ـ ؟

لم تضيع بريطانيا وقتها .."!" وإذا كان هناك أرثوذكس تحميهم روسيا، وكاثوليك تحميهم فرنسا، فهناك بروتستنت، ينتظرون حماية أمهم بريطانيا ..!!

وهكذا تقدمت إلى السلطان عام ـ ١٨٤٠ ـ طالبة الإذن ببناء كنيسة بروتستانت فى القدس .

ولننظر كيف سارت المهزلة فيما بعد ...

لقد أوحت كل دولة من الدول الثلاث إلى القساوسة والرهبان التابعين لمذهبها، بأن يشاغبوا قساوسة ورهبان المذهبين الآخرين.

وبدأت الفتن تنشب بين قساوسة المذاهب الثلاثة، بالقدس، الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت..

وجاءت الخطوة التالية ..

فتقدمت روسيا إلى تركيا، متهمة إياها بتحريض

الكاثوليك والبروتستانت على رعاياها الأرثوذكس.. وعليها إذا أرادت أن تثبت حسن نيتها، بأن تسلم فوراً مفاتيح كنيسة المهد فى بيت لحم إلى الرهبان الأرثوذكس..!

واقتربت فرنسا، فأرسل نابليونها الثالث، تهديدًا مباشرًا إلى تركيا ـ إن هى أجابت طلب روسيا، وإذا هى لم تكف عن اضطهاد رعاياها الكاثوليك "!"...

وأما بريطانيا، فوقفت تمارس دورها المعروف.. فتحرض سلطان تركيا على روسيا وفرنسا.. وتحرض روسيا وفرنسا على تركيا ـ حتى نشبت حرب القرم المعروفة..!

فى هذه الحرب، يتكشف الضمير السياسى، وتبدو حقيقته الشائهة.. فحتى الدين الواحد يستغل أبشع استغلال وتُمزق أواصره بين أبنائه على هذا النحو الردئ، من أجل الحصول على صفقة استعمارية هى

"تركيا"..!!

ولم تستنكف الدول التى كانت تتزعم الديانة المسيحية ـ وهى روسيا، وبريطانيا، وفرنسا.. لم تتورع هذه الدول عن تدنيس يديها بتمزيق أواصر الشعب المسيحى نفسه، وتحريض كاثوليكه على أرثوذكسه.. ما دام ذلك سبيلا إلى مطمع غير مشروع ..!!! تُرى هل اختلف الضمير السياسى فى منتصف القرن العشرين عنه فى القرن التاسع عشر، قرن بسمارك، وحرب القرم..؟؟

لكى نعرف، علينا أن نستعير بعض الشواهد من الأمس الرطيب والقريب.. بل من الأيام التى نعيشها ..

فى عام ١٩٣٣، تسلم زمام الحكم فى ألمانيا دكتاتور عنيد أحمق.. لم يكد ساعده يشتد حتى أخذ يهوى على الدول الصغيرة يستعبدها ويسرقها، وحتى أخذ ينادى ألمانيا فوق الجميع، ويعد لحرب عالمية، تنتهى بسيادة ألمانيا..

كان الموقف السليم للدول التى تزعم أنها ديمقراطية،

وحامية حمى الديمقراطية، أن تَجُبَّهَ هذا الغرور فى بدايته..

ولكن الضمير السياسى المريض تخلى عن المبادئ الخَيِّرة، فتخلَّت عنه العافية، وتخلَّى عنه الرشد.. هذا الضمير دفع الديمقراطيتان الكبيرتان"!" بريطانيا وفرنسا إلى ممالأة هتلر، أولا ـ وموسوليني ثانياً ممالأة حصد العالم كله شوكها فيما بعد .

* * *

لقد اجتاح هتلر"حوض السار"ذات صباح، أو ذات مساء.. وفى استخذاء شديد، ذهبت بريطانيا ووقعت معه معاهدة سرية "!" .

وذات صباح، أو ذات مساء آخر ـ سطا على تشكوسلوفاكيا بعد أن ازدرد قبلها النمسا .

أتدرون ماذا حدث ..؟؟

لقد أرسلت الحكومة البريطانية "اللورد نسمان"إلى الحكومة التشيكية فى مهمة دبلوماسية، وأذيع يومئذ أن مهمته تتمثل فى تنظيم مقاومة هتلر، مع

تشكوسلوفاكيا.. ثم اتضح أخيرًا، وبعد الحرب العالمية الثانية، أن السيد"نسمان" ذهب باسم الحكومة البريطانية لكى ينصح حكومة تشكوسلوفاكيا ـ بالإذعان لكل مطالب هتلر .!!

بقى أن نعرف أنه قبل غزو تشكوسلوفاكيا ببضعة أشهر.. ألقى الهر هتلر خطابًا سياسيًا قال فيه :

"إن من أكبر الكوارث، أن تتخلى انجلترا عن استعمارها للهند !!!"

معتدون يتعامل بعضهم مع بعض، وضمير سياسى فقد كل مقومات الضمير الحر الرشيد ..

وعندما اجتاح "موسولينى" بلاد الحبشة..ماذا كان دور هذا الضمير ..

اجتمع"صمويل هور" وزير خارجية بريطانيا مع"لافال" وزير خارجية فرنسا ـ وأعلنا اعتراف دولتيهما بشرعية الاحتلال الإيطالى لجزء كبير من الحبشة..!!

وفى عام ـ ١٩٣٦ـ اجتمع الشـــعب الإســبانى فى انتخابات حرة ورفع إلى مقاعد الحكم أعضـــاء الجبهــة الشعبية .

وكان الإقطاع الإسبانى يلتهم مقدرات الشـــعب فى أمعاء ليس لها قاع، ولاقرار.

وكان هذا الإقطاع فى يد الكنيسة الإسبانية الـــتى كان أكثر رجالها يقفون وراء الرجعية فى بلادهم .

لهذا، كان من الطبيعى لتصفية الإقطاع الذى قـررت حكومة الشعب تصفيته ـ أن تواجـــه الكنيســـة رغـــم جبروتـــها.

ولقد بدأ هذا فعلا.. وأخذت الإصلاحات الهائلـــة تتحقق.. وإذ الأرض تنشق فجأة عن"فرانكو".. فيقـــود حركة بل ثورة ضد حكومة اختارها الشعب، وتقـــوم بإصلاحات يريدها الشعب"!".. أى أن ثورة "فرانكـــو" كانت ثورة ضد الديمقراطيـــة، فـــإذا لم تعاونهـــا دول الديمقراطية، فلا أقل من ألا تحاربـــها .

ومع هذا فانظروا ماذا حدث .

لقد انهالت المساعدات العسكرية من الفاشية الإيطالية، والنازية الألمانية على حليفهما فرانكو ..

أما بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان، فقد اتخذتا موقفا أسمياه "سياسة عدم التدخل"

وكان هذا موقفًا تنكريًا .. أما فى الحقيقة، فقد تدخلتا لصالح فرانكو .

ذلك أن بعض المعونات أخذت تفد على حكومة الشعب الديمقراطية من الخارج.. فأوعزت بريطانيا لفرنسا كى تغلق حدودها عند جبال البرانس حتى تقطع الطريق على تلك المعونات ..!!

هذا سلوك الضمير السياسى فى عالمنا ..

سلوك، يقدم المنفعة على المبدأ.. والخوف على الواجب.. والباطل على الحق ..

سلوك سببه "تقوقُع" الضمير السياسى داخل دائرة ضيقة من مصالح خاصة،ونزعات عنصرية.. وهكذا

اختفى الضمير الإنسانى رويدا رويدا.. وأخذ مكانه الضمير السياسى المتعصب الكذوب.

ولو أن الضمير الإنسانى لم يختف ويختنق فى زحمة الأطماع، لو أنه بقى مكانه يقودنا، ويمسك بمصايرنا لامتنع قيام الحروب ..

أجل.. لو أن اليابان حين استولت على منشوريا عام ١٩٣١ـ وجدت الضمير الإنسانى متمتعا بسلطاته،متحديا عدوانها ـ لما غزا موسولينى الحبشة عام ١٩٣٥..

ولو كان الضمير الإنسانى فى مكانه ليزجر موسولينى عن غزو الحبشة ـ لما زحف هتلر على أرض الرين عام ١٩٣٦ ولما زحفت اليابان على الصين عام ١٩٣٧، ولما زحف النازى على النمسا وتشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ـ ولما قامت بعد هذا، وبسبب هذا، الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩..

لكن الضمير الإنسانى لم يكن موجوداً.. وكان هناك

الضمير السياسى الموبوء بوباء أوربا، والحـــامل لكـــل ميكروبات الاستعمار .

والدول المعتدية، تعلم أن عَلفَ هذا الضمير ـ هـــى المساومة وهكذا لكى يظفر هتلر ـ مثـــلا ـ بســكوت بريطانيا على سرقاته.. ليس عليه إلا أن يُعلن أن احتلالها للهند بركة، وأن جلاءها عن الهند كارثة .."!"

ولو كانت مسايرة بريطانيا، وفرنسا للفاشية والنازية ضربا من ضروب التعاون الإنسانى، لكان عملا طيبا..

فقد بارك العالم كله هذا النوع من التعاون بين دول مختلفة النظم اختلافا بعيدا .

فى عام ١٩٤٠ خطب "روزفلت" أمام الكونجـــرس الأمريكى فأعلن"أن مسافة الخلف واســعة جــدا بــين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى"..

ثم لم يمض عام واحد، حتى كان الاتحاد الســـوفيتى والولايات المتحدة يعملان معا وفى صف واحـــد ضـــدَّ الغزو النازى.

لكن الذى حدث بين بريطانيا وفرنسا من جانب، وألمانيا وإيطاليا من جانب آخر.. لم يكن تعاونا على الخير.. بل تبادلاً للمنافع المنهوبة.

ولقد انتقلت العدوى يومئذ إلى "عصبة الأمم" فلاذت بالصمت المريب تجاه كل العدوان الذى كانت إيطاليا، وألمانيا، واليابان تقوم به ـ مما جعلها تعيش عمرها القصير. "وكالة حكومات"، لا جمعية أمم وشعوب..

* * *

ومعنى هذا بداهة، أن أية منظمة عالمية، تنهض لحماية المصير الإنسانى، ستصير عاجزة حتى عن حماية نفسها، ما دام الضمير السياسى العالمى.. وفى خدمته كل القوى الشريرة التى تسانده، قادراً على التسلُّل إليها، وعلى التحكم فيها .

إننا نعجب كثيرا لموقف "عصبة الأمم" بالأمس من حقوق الإنسان التى كانت تُهدر جهارا عَلَنا، وهى

ساكتة أحيانا، وشريكة فى الوزر أحيانا أخرى..

وتعجب لموقف"هيئة الأمم" اليـوم مـن الحقـوق الكثيرة المهدرة لبعض الأمم والشـعوب.. ووراء هـذا الموقف للعصبة وللهيئة، تقف أزمة الضمير السياسى على رأس الأسباب التى تثمر هذا الموقف الكئيب.

إن هناك ـ لا ريب ـ سيطرة الدول الكـبرى، أو بعضها على المنظمات العالمية.. وهناك نفوذ أصحـاب المصالح، وأقطاب الصناعة والمال فى العالم .

ولكن، كل هذه القُوى، كان من المستطاع نَهنهـة الكثير من شرها، ولا أقول ـ كل شرها ـ لو أن الضمـير الذى تستهديه المنظمات العالمية، كـان أكـثر نقـاء، واستبسالا، وأمانة .

لكنه، ومن واجبنا أن نعترف بهذا فى غير مواربـة، ضمير مثقل بالضعف، وبالآفات .

وهو لا يستطيع أن يكون إلا هكذا، ما دام يعيـش داخل ظروف منحرفة، وما دام يستمد غذاءه، وهـواءه

من تلك الظروف الآسنة العَكِرة الخانقة ..

فما السياسة التى تغذى هذا الضمير، وتَصُبُّ فيه..؟؟

إنها ـ كما رأينا من الشواهد السالفة ـ كرنفال هائل مضحك ومزعج معاً من الأكاذيب، والأحابيل والمؤامرات .

وهى فى أظهر صورها ـ إن كان فيها طُهر على الإطلاق ـ انعكاس الشكوك،والمخاوف، والأطماع التى تنتاب الدول، وتتحكم فى تفكيرها السياسى .

ومُنظمة عالمية، تمثل قيام مجتمع إنسانى واحد، لا يمكن لها أن تحيا، وتعمل، وفى داخلها ضمير يتغذى بتلك السموم .

لقد عاش عالمنا الحديث على آلاف الوُعود بأنه لا حرب.. ولا ظلم .. ولا استعمار ..

ومع هذا ـ فلم تكن قاعدة حياته إلا الحرب، والظلم، والاستعمار.. وكانت فترات السلم، والعدل،

والحرية.. مجرد لحظات عابرة.. كأنها أخطاء تورطـــت السياسة فيها، ثم لم تلبث أن تخلـــت عنـــها وعـــادت لتصحيح موقفها...!!!

ويحدث هذا ـ دوما ـ لأن الضمير السياسى الملتاث هو القائد والرائد .

وليس شر ما فى المسألة أن ضميرًا مريضًـــا شـــريرًا يتحكم فى مقدراتنا ومصايرنا ـ بل أكثر من ذلك شـــرًا، غفلتنا، وضعف إدراكنا للخطر الفادح الذى يمثله هـــذا الضمير .

إننا لا نضع العين عليه، كعامل من أكثر العوامـــل المخربة فى صفوفنا البشرية ـ ومن ثمّ فلا نبـــذل جـــهدًا لِرَدْعه وتقويمه.. ومن ثمّ مرة أخرى ـ فهو يعمل فى حرية كاملة وطُمأنينة أكيدة..!

فى ميثاق الأمم المتحدة نص يلزمها بـــ"اتخاذ تدابـــير مشتركة للقضاء على كل ما يخل بالسلم" ..

ولكن. إلى جوار هذا النص الطيب، تجد مبدأ يُحتِّـــم

"إجماع الدول الخمس الكبرى على كل قـــرار يصـــدر عنها".. !

كيف إذن يمكن اتخاذ تدبير ما لحماية السلام والأمن إذا كان المتهم إحدى هذه الدول الكبرى .

وما سرّ هذا التناقض البين ..؟

إنه الضمير السياسى، الذى يعمل بـــأهواء عـــدة.. ويُناط به التوفيق بين أطماع ومصالح متنافرة ..

والذى يُحاول دوما وفى تخبط مستمر، أن يـــأكل الكعكة، ويحتفظ بـــها فى نفس الوقت ..!

إنه إذا أحسنًا به الظن.. يريد أن يُوجـــد ظـــروف السلام، بشرط الإبقاء على كل مغانم الحرب ..!

* * *

إن آفة الضمير السياسى لعالمنا، تتمثل فى انفصالـــه عن قاعدته.. وقاعدته هى العالمية القائمة علـــى أســـاس حقوق الإنسان..

فمحلّية الضمير، وإقليميته دفعته إلى إعـــلاء شـــأن

الأنانية والتعصب، وإلى تبرير كل الجرائم التي تثمرها الأنانية والتعصب.

ويوم آمن هتلر بمخلفات أسلافه الألمان، من" فخته" و"شبنجلر".. إلى "بسمارك"و"غليوم" الذين هتفوا بالتفوق العنصرى للألمان ..

ويوم نفخ هو فى هذه المشاعر.وأحالها إلى عقيدة فولاذية..

ويوم ملأ أفئدة الألمان بأنهم"فوق الجميع" ووعدهم بألف عام يسودون فيها الأرض، ويُوجهون الدنيا.

يومئذ ـ كان الضمير الملتاث يُدبر فى قساوة فَاتكة أسوأ مصير للألمان، وللعالم كله ..

وكذلك يوم تركزت مفاخر الإنجليز، ومصالحهم، وأمجادهم فى "امبراطوريتنا".. تَنكّب ضميرهم كل حق.. ومجّد كل باطل..وصارت كلمة دزرائيلى المشهورة.. "أوثر على حقوق الإنسان.. حقوق الإنجليز".. صارت

هذه الكلمة شعارَهم ودستورهم وموضوع حياتهم.

والظلم الكبير. بل الأكبر الذى جُرِّع أهل فلسطين كئوسه المريرة، ما كان إلا ثمرة تمجيد الذات وتمجيد العنصرية، والعمل داخل نطاق الأنانية البغيضة، والقومية المقفلة.

وهكذا تتزاحم الأمثلة والشواهد، متماثلة متشابهة، لتضع أعيننا على أخطر آفاتنا.. تلك هى انفصال الضمير السياسى عن قاعدته ..

لو أن هذا الضمير يحس المشاكل إحساساً شاملا عميما،وينبض بمصالح العالم مجتمعة.لا بمصالح قطاعات خاصة، لجُنِّبَ العالم كثيراً من الحروب، وكثيراً من الفتن والاضطرابات.

ولو أنه كذلك يستهدى المبادئ الإنسانية العامة لبرئت أرضنا من الظلم، ولترعرعت فيها مباهج الحياة ..

* * *

إن انفصال الضمير عن قاعدته التى عرَّفناها فيما

سبق، لم يجعل السياسة العالمية أنانية وحسب..بل جعلها ضرباً من الشعوذة والدجل، يلْبِس الحق بالباطل، ويَرُوض الناس على الشك فى كل القِيَم والوقائع .

والشعار السياسى القائل "اكذب.. واكذب.. ثم اكذب دائما؛ فلابد أن تجد من يصدقك"..هو التعبير اللفظى لأخطر عمليات الشعوذة السياسية التى أشاعت، ولا تزال تشيع فى عالمنا الاضطراب والقلق، وفقدان الثقة.

كثيرًا ما تلبس السياسة مُسوح العدالة والخير، فينخدع الناس لها، حتى إذا حققت أغراضها الخبيثة، أو كادت.. تكشَّف زيْفُها، ولكن بعد فوات الأوان الذى كان مُناسبا لِدَحْض مناوراتها .

ومبادئ الحرية، والحق، والسلام، ليست سوى مطايا ذُلُلا تمتطيها السياسة لتحقيق مآربها .

فى عام"١٨٢٢"تُوِّجت بريطانيا بغار الشرف والمجد، لأنها أبْلَت بلاء عظيما فى سبيل إقرار"مبدأ مونرو"

القائل"أمريكا للأمريكيين"، والـــذى منـــع التدخـــل فى الشئون الأمريكية، فمنع بـــهذا محاولة النمسا حمل الدول على التدخل لقمع حركات التحرر، وثورات الاستقلال.

كانت البلاد الخاضعة للنمسا يومئذ تتفجَّر رغبـــة فى الاستقلال والحرية.. وكانت هى تعقد المؤتمرات لتقـــرر عدم مشروعية هذه الانتفاضات .

ووقفت روسيا، وبروسيا، وفرنسا ـ مؤيدة النمسا.. بل ومرسلة جيوشها إلى كل بلد ينادى بحريته ويـــهتف باستقلاله.

وفجأة وقفت"بريطانيا" ضد حلفائها منادية بعـــدم التدخل فى شئون الدول الداخلية.. وانبهر العالم يومئـــذ بهذا الموقف، وصـــاح مـــن فَـــرْط النشـــوة، وروعـــة المفاجأة:"لقد هُدِيَت بريطانيا".

فهل تعرفون السرَّ الـــذى وراء موقـــف بريطانيـــا هذا..؟؟

لقد كان للنمسا مســـتعمرات كثـــيرة فى أمريكـــا

الجنوبية ..

وكان بعض هذه المستعمرات، قد بدأ الثورة ضد استعمار النمسا.. فمبدأ"التدخل" الذى تنادى به النمسا، سيمكنها من إطفاء هذه الثورات.. ومبدأ "عدم التدخل" الذى تنادى به بريطانيا سيجعل النمسا تقف وحدها أمام الثورات المعادية لها، والتى اندلعت فى كل أنحاء امبراطوريتها..

وبريطانيا حريصة كل الحرص على ضعضعة النمسا وإضعافها، وأيضًا على طردها من أمريكا الجنوبية ..

وهكذا تبنَّت مبدأ "عدم التدخل" باسم حقوق الإنسان طبعاً.."!"ووقف وزير خارجيتها"كاننج" يُعلن فى إنسانية مفيضة أن"بريطانيا الدستورية الحرّة، ليس من صالحها مساندة الرجعية، والملوك المستبدين".."!".، وأوعزت بالفعل إلى"مونرو" رئيس الولايات المتحدة يومئذ، كى يعلن أن "أى تدخل أوربى فى أية بقعة من أمريكا، ستعده أمريكا عملا عدائيًا، وستقاومه ولو

بالحرب"..

وهكذا انتصرت بريطانيا، وساد مبدأ "عدم التدخل" سيادة تامة .

والآن، فلننظر بقية النبأ، فإن فيه من الطرافة. قدر ما فيه من العظة .

عندما جاءت الحرب العالمية الأولى، كانت أمريكا.. لاتزال سائرة على مبادئ"مونرو".. لا تتدخل فى شئون أوربا،ولا تتدخل أوربا فى شئونها..هذا المبدأ الذى أقنعتها به بريطانيا، وحملتها عليه عام"١٨٢٢"..

أفتظل أمريكا بعيدة عن هذه الحرب العالمية..؟

إنها إن فعلت،كان ذلك نكبة على بريطانيا التى تتوقع هزيمة كبرى إذا لم تخف أمريكا بإمكانياتها لنجدتها ومشاركتها الحرب..

ولكن"مبدأ عدم التدخل" لا يزال قائما.. وبريطانيا هى صاحبة الفضل فيه، فماذا تصنع ..؟؟

إن السياسة، والسياسة البريطانية بصفة خاصة

لا تعرف المبادئ إنما تعرف المصالح .

ولقد كان مبدأ "مونرو" حميدًا، يوم كـان يحمـى مصالح بريطانيا أما اليوم،"فليسقط مبدأ مونرو"،و"لتحيـا مصلحة بريطانيا .."

وهكذا أخذت بريطانيا تتوسل بكل دهائها لهـدم ما بنته بالأمس، وتجعل من مبدأ عدم التدخـل خيانـة لحقوق الإنسان، وجريمة فى حق أمريكا نفسها، بعـد أن كان أقدس الواجبات؛ فأوعزت إلى الصحافة الأمريكيـة، وكل أجهزة الدعاية والإثارة لتنادى بأن.. عدم التدخل، هروب وانتحار.. وأن هزيمة بريطانيا فى الحرب، ستكون هزيمة لأمريكا، لأن الديون الهائلة التى تديـن أمريكـا بريطانيا بـها، ستضيع مع هزيمـة بريطانيـا... ولمـا انتصرت فى روسيا ثورتـها الشـيوعية عـام "١٩١٧" وقررت حكومة "لينين" الانسحاب من الحرب وجـدت بريطانيا الفرصة سانحة لإنزال الرعب ـ كل الرعب ـ فى قلب أمريكا، وأقنعتها بضرورة التدخل، فدخلت الحـرب

يوم ٦ أبريل عام"١٩١٧"..

إن هذا المثال يتكرر فى الدنيا كل يوم.. ونُبصر دولاتنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسَة يتخذون مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم هى منطوية على نقيضها تمامًا..

كما نبصر مواقف يَتّسِم ظاهرها بالإخلاص لحقوق الإنسان وهى فى حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمع هذه الحقوق وتضليل مَسْعاها..

إن المبادئ التى يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة، هى الجديرة اليوم بالسيادة، والذيوع، حتى يمكن الظفر بضمير سياسى جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم الحق، لا الباطل.. ويعمل فى خدمة البشرية بجتمعة. لا فى خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..







.. والرمـــاح منـــاجل !









تنبأ بسلام الأرض ومَن عليها، كثيرون من أبنائـــــها البررة الذين ساروا فوقها هَونا .

وعمل لهذا السلام كثيرون بعقولهم، وبســـواعدهم وبمساعيهم الجليلة النبيلة ..

وهناك على ناصية الطريق من بعيد.. ترك إنسان بارٌّ بُشرَى مضيئة .

إنه "أشعياء" أنبأ أن عالما جديداً سَيهلُّ زمانه، وتُطـلُّ أيامه ـــ يقف الناس جميعاً فيه إخوة متحابين .

"يطبعون سيوفهم سكَكا "

"ورماحهم مَناجلَ . . . "

"لا ترفع أمة على أمة سَيفا "

"ولا يتعلمون الحرب فيما بعد"

كان سلام العالم "رؤيا" الذين استشرفوا المصير الإنسانى ببصائرهم المجلوّة المشرقة المُلهَمه..

وكان "أمل" الذين استقرءوا التاريخ، وتتبعوا حركته؛ فرأوا فيه محاولة صامدة وصاعدة ..

وفى عصورنا هذه قَوِىَ الرجاء، وازدهر الأمل، وأوشكت "الرؤيا"، أن تصير "رؤية".. وأصبحت قضية الإخاء البشرى موضوع اهتمام الناس جميعًا.

وهذه الصفحات على الرغم من الحمية المتبدية فى بعض كلماها.. ليست إلا تغريدة فى مهرجان الأمل العظيم .

ولكنها تكون تغريدة خالية من المعنى، ومن البهجة الصادقة، لو أننا تجاهلنا عوامل الفرقة والتمزق ولم نكشف عنها قناعها وغطاءها، تمهيدًا لمقاومتها وعزلها عن الحياة الإنسانية.

ولقد أتينا على ما نرى أنه أكثر عوامل التفرقة شرا.
وقلنا إنـــها: ـ

• رأس المال الهادف إلى الاحتكار والسيطرة.
• الأحلاف التى وقفت وراء معظـــم الحـــروب، والسرقات..
• تقسيم العالَم إلى "دول كبرى"لها كـــل شـــىء، و"دول صغرى" ليس لها من الأمر شىء..
• انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنســـانية وإيثاره المنفعة على الواجب ..

ولقد كان التاريخ شاهد صدق على الدور الوبيـــل الذى لعبته هذه الآفات الأربع، فى تمزيق وشَائج الإخـــاء الإنســـانى، وفى تضليـــل إرادة التفـــاهم، والتجمـــع، والالتقاء..!

والآن، نود أن نُوفق إلى وضع خطة نتلافى بها زحف هذه العوامل الضارة .. وإلى اختيار نهج يقترب من الغـد العظيم ولسنا نزعم أننا نملك الخطة الكاملة ، ولا نُقـــدم

النهج الأوفى .

وإنما هى"إيماءة" إلى الطريق.. بيد أنها بما تنطوى عليه من صدق المحاولة، وإيثار الفهم على الظن ــ يمكن أن تكون ذات نفع عظيم

لقد أبانت الصفحات السالفة من الكتاب، المخاطر المبهظة التى تُعرِّضُنا لها الآفات الأربع .

فكيف السبيل إلى نفيها من حياة البشر ..

وكيف السبيل إلى جمع الشَّتات البشرى، والاقتراب من عصر العالَم الواحد والإنسان المُحبّ الودود ..؟؟

هذا هو ما سنحاوله فى هذا الفصل الأخير من الكتاب .

* * *

موقف نزاع ..

ونبدأ محاولتنا بتصور العالَم على الطبيعة.. لا فوق الخريطة.

وأول شىء ستقع عليه أعيننا، وأكثر مظاهر هذا

العالَم إثارة لانتباهنا، هى مسافة الخُلف الحافلة بأسبابها بين معسكرين شهيرين.

(ا)معسكر الرأسمالية ، أو الغرب .

(ب)معسكر الاشتراكية، أو الشرق .

وبالتالى ـ بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى..

ونحن نؤثر أن نبدأ محاولتنا من هنا.. أعنى من مواجهة هذا الموقف الذى اخترنا له كلمتى "موقف نزاع"..

وليس سبب هذا الاختيار فى البدء، أن روسيا وأمريكا دولتان كبيرتان.. أو أن الرأسمالية والاشتراكية مذهبان أو حدان..

فنحن كما أوضحنا من قبل، وكما سنذكر من بعد، لانؤمن بتقسيم العالَم إلى كبير وصغير، ولا بتقسيم المذاهب والفلسفات أيضًا.

فلجميع الأمم حقوقها المتكافئة.

ولجميع الفلسفات حقوقها المتكافئة.

ولا فضل لأمة على أخرى ولا فلسفة على أخـــرى إلا بقدر ما تسدى من يد للسلام، وللخـــير، وللعـــدل، وللحقيقة، وللإخاء..

ولقد قلنا إننا ننظر إلى عالمنا اليوم على الطبيعة ..

وعلى الطبيعة، وفوق صعيد الواقع، نجـــد دولتـــين انتهت إليهما ـ وفَق الأساليب السائدة من زمان ـ زعامـة العالَم فى عصرنا هذا..

وسواء تقبلنا هذه الزعامة أو رفضناها، فـــهى مـــن جهة الواقع ليست خُرافة ولا وهما.

إن ظروفا تاريخية معروفة، دفعت كلتا الدولتـين إلى الصَّدارة فى عصرنا هذا.

ونقول "فى عصرنا هذا" لأن أحدًا لا يعلـــم مـــاذا تكون الأمور غداً، إذا ظلت المعايير التى تجعل فى العـــالم صغاراً وكباراً، قائمة وسائدة.

وتصفية الموقف بين روســـيا، وأمريكـــا، وبـــين الرأسمالية، والشيوعية .

هذه التصفية ـ لو تمت ـ تكون نقطـــة الانطــلاق العظيم نحو عالم لا تأثيم فيه ولا غِلّ .

ولكن يجب أن تتم التصفية وفَق المبادئ التى تخـــدم المصير الإنسانى المشترك ـ لا وفَق القواعد الـــتى تخـــدم مصاير خاصة..

ولكى يتم هذا على الوجه الحق، لا ينبغى أن تُـــترك معالجة ما بين الدولتين، للدولتين وحدهما.. بل ينبغـى أن يسهم العالم كله بنية صادقة فى إتمام هذه التصفية .

وتصفية ما بين الدولتين، تقتضى اكتشاف ما كـــان بينهما من تاريخ مشترك، واكتشاف عوامـــل الاتفـــاق والقربى التى هى موجودة فعلا والتى تستطيع أن تجمـــع بينهما فى عمل مشترك عظيم ..

وتصفية ما بين المذهبين، تقتضــــى معرفــة البنـــاء التاريخى لكل منهما، واكتشاف التخوم المشتركة بينهما، وفهم فلسفة التوقيت التى تعمل فيهما وتختار بينهما.

لقد ألفنا أن نعطى عوامل الخلف مـــــن حرصنـــا،

وسعينا، أكثر ما نعطى عوامل القرب والاتفاق.. ومن ثمَّ كانت شُقة الخلاف تمضى دائماً نحو الاتساع .

أما الآن، فسنقصر محاولتنا على كشف عوامل القرب.. كشف الأرض المشتركة التى نقف فوقها جميعاً مهما شَطَّ بنا الخلاف .

* * *

تُرى، هل يكون من حسن حظ العالَم أن تنحصر خلافاته الكبيرة والشاقة اليوم بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفتى..؟؟

رُبما ..

فالدولتان ـ عَبر التاريخ ـ كانتا دائما أقرب إلى المودة المتبادلة منهما إلى الحقد والعداوة .

وبعد ثلاثين عاماً من قيام الدولة الأمريكية، بعد انتصارها فى حرب الاستقلال ـ إلى أيامنا هذه، والعلاقات بين البلدين طيبة فى مجموعها ..

ويوم وقفت بريطانيا وفرنسا، تغذيان الحرب الأهلية

الأمريكية، وتناصران الجنوب فى تلك الحرب، تقدمـــت روسيا القيصرية بمساعدات هائلة أحبطت عمل فرنســا وانجلترا.. وكان هُتاف الأمريكان يومئـــذ "الله يبــارك الروس"..!

ولعلّ مخاوف أمريكا من روسيا، لم تأخذ شـــكلها الحاد إلا يوم انتصرت الثورة الشيوعية، وقـــام الاتحـــاد السوفيتى .

فغَداة هذه الثورة، سمحت أمريكا لنفسها أن تتدخل بقوة السلاح فى شئون روسيا وضد حكومتها .

كما سمحت لنفســها أن تمتنــع عــن الاعــتراف بالحكومة الجديدة مدى أربعة عشر عامًا ـ مـــن عــام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٣.

على أن فى التاريخ ظاهرة عجيبة. تُشـــير إلى أن فى علاقات روسيا وأمريكا وشيجة هامة لعلهما عاجزان عن رؤيتها.

ففى الحرب العالمية الأولى.. وقفـــت الدولتـــان فى

جبهة واحدة..

وفى الحرب العالمية الثانية.. وقفت الدولتان فى جبهة واحدة..

والعبرة فى الحرب الثانية ألمع منها فى الحرب الأولى.. فالحكومة الروسية التى خاضت الحرب مع أمريكا فى الحرب الثانية ـ كانت حكومة شيوعية ..

وهذه الحكومة كانت فى حلف مع هتلر.. حتى كشفت لها الظروف الصحيحة أن مكانها ليس مع هتلر.. وإنما مع حليف آخر.. وكان هذا الحليف ـ أمريكا.

أليس ثمة سرّ خفى يجمع بين الدولتين فى ساعات الخطر.

بلى.. هناك سر، ولكنه ليس خفيا.. بل هو واضح وماثل فيما بين الدولتين من إمكانيات طبيعية للتفاهم والتآخى..

ماذا تنقم أمريكا إذن من روسيا.؟

وماذا تنقم روسيا من أمريكا.؟

لابد أن النزاع بين المذهبين الرأسمالى، والشيوعى ـ على رأس عوامل الخلاف بين الدولتين .

وسوف نعرض لهذا العامل عندما نتحدث عن الخلاف المذهبى .

أما الآن فنرى أن من أسباب نقمة أمريكا على روسيا، أنها:

أولا ـ مسئولة عن معظم الانتفاضات الثورية فى بلدان آسيا وأفريقيا ..

ثانيًا ـ مسئولة عن الحملات التى تعرضت لها أمريكا فى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا..

ثالثًا ـ مسئولة عن التغرير الذى تُوقعه بالشعوب الأخرى، مما يجعل هذه الشعوب تتخذ من روسيا صديقاً لها.. وكل صداقة لروسيا ـ تعنى عند أمريكا ـ العداوة لأمريكا ..

رابعًا ـ محاولاتها المتنكرة لبسط سلطانها وسيادتها ونظامها على العالم .

ونحن لا نخمن هذه الأسباب ولا نفتعلها.. وإنما هى مبسوطة فى كل الكتابات الأمريكية التى كتبها كبارُ كُتَّاب أمريكا ومعلقيها السياسيين.. ومبسوطة كذلك فى التصريحات الرسمية الكثيرة للمسئولين الأمريكان ..

• فأما مسئولية روسيا عن ثورات التحرير فى العالم. فهو شرف عظيم تضفيه عليها أمريكا، وهى لاتدرى ..

ونحن بدورنا نُشرك أمريكا فى هذا الشرف.. باعتبارها صاحبة ثورة من أنظف وأعظم ثورات التاريخ.. ثورة كانت الطليعة للثورة الفرنسية نفسها، ولكل ثورات التحرر فى أوربا خلال القرن التاسع عشر، ومطالع القرن العشرين..

وحتى إذا كانت روسيا مسئولة وحدها عن ثورات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهل فى ذلك ما تبْتئس به أمريكا..؟؟

إننا نفهم أن يثير هذا مغايظ بريطانيا، وفرنسا، لأن العقد الذى انفرط بهذه الثورات كان عقدهما.. أما

الولايات المتحدة، وطن جيفرسون، وواشنطن، ولنكولن.

فما لها فى ثورات التحرير عدو تخشاه .

* * *

• أما مسئوليتها عن الحملات التى تعرضت لها أمريكا فى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا.. فالمسئول الأول والأوحد ـ أمريكا نفسها منذ أسلمت "ذقنها" لحلفائها، وخاضت معهم أوحال أقصى استعمار مارسوه وفرضوه على الناس ..

عندما حرص "ترومان"رئيس الولايات المتحدة على أن يكون أول مهنئ بقيام دولة "إسرائيل" دون أن يُدخل فى اعتباره الفطِن ، التبعات السياسية لهذه المبادرة.. ودون أن يُجامل العرب فى مأساتهم الكبرى، ولو بالتريث قليلا فى إرجاء التهنئة..!!!

عندما فعل هذا، أثار حفيظة العرب بلا ريب ولم تكن روسيا صاحبة الفضل فى هذه الإثارة .

وعندما تُعلن حكومة مصر إلغاء معاهدة"٣٦"

وتُرسل بريطانيا شواظا من نار على شعبها فى القنـال ثم يقف وزير خارجية أمريكا ليعلن" أن حكومـة مصـر لا تملك الحق فى إلغاء المعاهدة" ويُناصر بهذا التصريح كل أعمال البطش البريطانى ضد شعبنا.. فإن مثل هذا الموقف يثير نقمتنا لا ريب.. ولم تكن روسيا صاحبة الفضـل فى هذا..

وعندما تفاجئنا حكومة الولايات المتحدة بسـحب تمويل السد العالى، وفى ساعة خَطِرة من ساعات حياتنا.. ثم تشفع عملها هذا، بإشهار إفلاسنا على العالم أجمـع، بطريقة لا ذوق فيها ولا عَدل ..

فإن هذا الموقف يدعو للغضب لا ريب.. ولم تكـن صاحبة الفضل فيه ـ روسيا ..

وحين تحمل أمريكا، هيئة الأمم المتحدة على حرمان الصين من أبسط حقوقها وهو عضوية المنظمة العالميـة المذكورة.. فإن ذلك يثير الحفيظة، والريب.. وليسـت روسيا صاحبة الفضل فى هذا...

وهناك مواقف كثيرة تتَّسم بالرداءة، تورطت فيـــها سياسة الولايات المتحدة.. ولكننا لا نستطرد فى ذكرهـا، لأن تصفية الأحقاد، لا إشعالها ـ غرضنا من هذا الكتاب.

وما كنا لنسوق هذه الأمثلة، لولا أن المقام يتطلـــب ذِكرها حتى نصحح موقفــاً، يتطلـــب ســـلام العـــالَم تصحيحه.

* * *

• أما مسئولية روسيا عما تعتبره أمريكـــا تغريـــراً بالشعوب التى تُسارع إلى صداقتها؛ فلنسأل التاريخ عـــن هذا.

عندما قامت حكومة"لينين" فى روسيا، بدأت عملها بنشر الإتفاقات السرية التى كانت قـــد أبرمـــت مـــن بريطانيا، وفرنسا وقيصر روسيا.. والـــتى وُزع العـــالم بمقتضاها بين الدول الثلاث كغنيمة باردة ..

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات السرية كـــانت تمكن روسيا من فرصة ذهبيـــة، وتعطيـــها اســـتانبول،

والدردنيل، وبحر مرمرة، ومنطقة واسعة تتاخم القفقاس .

على الرغم من هذه الفرصة الذهبية النادرة، فقد أعلن "لينين" تنازل روسيا، بل اشمئزازها من هذه الصفقة المسروقة.

لتقل أمريكا فى دوافع هذا العمل ما تقول.. ولكن ألا تعترف أنه عمل عظيم باهر..؟؟ وأليس مثل هذا العمل يدعو إلى حب أصحابه وتقديرهم ..؟؟

وهل هذا الحب ثمرة تغرير وخداع ..

إن الاتحاد السوفيتى فى منطقة كمنطقة الشرق الأوسط لم يخلق لنفسه عدوات بين أهلها.. عدوات تحمل الناس على الخوف منه فضلا عن بغضه .

تمامًا مثل الولايات المتحدة قبل أن تحمل أوزار حلفائها.

لقد ثار العرب ثورتهم الكبرى عام ـ ١٩١٦ـ..

وفى تلك الثورة، ناصروا الإنجليز والفرنسيين ضد الدولة العثمانية ـ أملا فى الظفر بحريتهم التى وعدهم بها

الإنجليز والفرنسيون.."!"

ولكن قبل هذه الثورة بشهر واحد، كانت بريطانيـا وفرنسا قد وقّعتا مع القيصر اتفاقية "سـايكس بيكـو" ومزَّقوا بها العرب شرَّ ممزق.. فى نفس الوقـت الـذى يقولون للعرب فيه: ساعدونا ضد تركيا، ولكم الحريـة كافة والاستقلال كاملا ..

و لم يفضح لنا هذا الإتفاق الغادر سوى حكومـة الاتحاد السوفيتى ..

* * *

وفى إيران ـــ ورثت حكومة "لينين" جزءًا كبـيرًا كانت تحتله حكومة القيصر، وفق معاهدة سـرية بـين القيصر وبريطانيا.. فما إن تسلم"لينين"زمام الحكم حـتى سحب جيوش بلاده فوراً.. وبدلا من أن تصنع بريطانيـا صنيعاً مماثلا، زحفت بجيوشها شمالا، واحتلـت جيمـع إيران..!!!

أفيكون هذا العمل من روسيا تغريراً وخداعاً ..

وفى تركيا ـ حين قام .. "أتاتورك" بثورته وألبت بريطانيا ضده كل دول العالم فرفضت الاعتراف بـه.. واستولى الجيش البريطانى على نصف أراضى تركيا، واحتلت إيطاليا جزرها ـ لم يسارع لنجدهما سوى الاتحاد السوفيتى الذى اعترف بحكومة "أتاتورك" ..

وأحبط المشروع البريطانى الفرنسى الإيطالى اليونانى الذى كان يهدف لتمزيق تركيا واقتسامها، وأمست معاهدة "سفر" المشهورة، هباء فى هباء ..!!

أكان هذا العمل تغريرًا وخداعا ..

ومصر ـ عندما وقف الاتحاد السوفيتى يناصرها فى مجلس الأمن أثناء عرض قضيتها عليه عام ١٩٤٨.

وعندما امتنع الغرب عن إمدادها بسلاح قبض ثمنه مقدما فبسط الاتحاد السوفيتى يده إليها بالسلاح .

وفى حرب السويس عندما وقف"بولجانين" يعلن باسم حكومته وبلاده أن الاتحاد السوفيتى قادر على قصف المدن البريطانية والفرنسية بالصواريخ الموجهة، إذا

لم تنه بريطانيا وفرنسا عدوانهما المسلح ..

أكانت هذه المواقف تغريرًا وخداعا..؟؟ كيف نعتبر تمويل المرحلة الأولى فى بناء السد العالى مثلا ـ ضربا من التغرير. ونحن نرى البناء يُشاد ويرتفع ..؟

الحق أن أمريكا تستطيع أن تكتشف بنفسها ولنفسها، أن حُبَّ الشعوب التى تناصرها روسيا لروسيا ليس ثمرة خداع ولا تغرير، إذا جرَّبت هى، ومنحت هذه الشعوب قلبها وودها، وعاونتها على نيل حقوقها كاملة .

عندئذ ستحبها هذه الشعوب وتحترمها ـ كما أحبت روسيا واحترمتها... وعندئذ ستعرف من طعم هذا الحب حين تذوقه ـ أنه ثمرة الفهم وحفظ الجميل.. لاثمرة الخداع والتغرير.

أما محاولة روسيا بسط سلطانها ونظامها على العالم.. فنود أن نسأل:

هل فى محاولتها هذه ـ إن صحَّت ـ ما يشدّ زناد

البغضاء، ويوسع شقة الخلف بين أمريكا وبينها .."؟!"

لقد عاشت العلاقات ودية وطبيعية بين أمريكا وبريطانيا يوم لم تكن بريطانيا تحاول فحسب بل كانت تبسط على العالم بالفعل سياستها وتفرض عليه استعمارها ..

وفرنسا، صديقة أمريكا وشريكتها فى حلف الأطلسى، ترتكب خلال أربعة أعوام موصولة الأيام والليالى، أبشع أنواع السيطرة، والاستعمار والتخريب .

فهلا تستطيع أمريكا أن تعامل روسيا بالمثل فتهبها صداقتها فى نفس الوقت الذى تحاول فيه روسيا بسط سلطانها ونظامها على غيرها..؟!

قد يبدو هذا السؤال ساخرًا.. ولكننى مع هذا أعنيه.

ثم إذا كان هذا الاتهام صحيحا.. وكانت روسيا تبغى حقيقة بسط سيطرتها وسلطانها؛ فما سبيل الحيلولة بينها، وبين محاولتها..؟

إنها سبيل واحدة.. هى دعم سلطان هيئة الأمم

المتحدة دعماً كاملا، وتمكينها من بسط نفوذهـا علـى الدول الكبرى نفسها، حتى تصير قـادرة علـى كبـح جماحها حين تُحاول الجموح إحداها.

وحين ترتفع تصرفات أمريكا إلى المستوى الـذى تتطلبه سيادة الأمم المتحدة.. وحين تُسخِّر نفوذها لدعـم هذه السيادة، ستكون حقاً قد قطعت الطريق على كـل محاولة فردية لبسط النفوذ والسلطان .

لابد من اكتشاف جميع عناصر التفاهم المشـترك، القائمة والممكنة، فى العلاقات الأمريكية الروسية.. ولابد من تنمية هذه العناصر، ودعمها بما هناك مـن مصـالح مشروعة ومشتركة بين الدولتين ..

فى عام ـ١٩٤٥ـ زار موسكو " أريك جونسـتون " رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومئذ ـ، واجتمع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتى، وكان الرفيق "ستالين ".

وقال له ستالين:

"إن الولايات المتحدة ، قد أسدت إلى الصناعة"

"السوفيتية عوناً عظيما . . . ."
"وفى الاتحاد السوفيتى مصانع كثيرة أنشئت "
"بالعون الأمريكى،أو استعين فى إنشائها بالخبرة"
"الأمريكية . . . . "

وقال أيضًا:

"لقد صنع هتلر الأحمق خيراً واحد . . هو أنـــه"
"جمع بين الشعب الأمريكى، والشعب الروسى "
"وعلينا ألا نسمح لشىء ما أن يفرق بيننا . . ."
"نعم .. يجب أن نعمل معاً بعد الحرب . . . . "

هذا عن التراع بين الدولتين .

أما التراع بين المذهبين، أو النظـــامين ـ الرأسمـــالى، والشيوعى فأمره هَين إذا نحّينا اللغط وتوخيَّنـــا الفـــهم الصحيح.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عــــام"١٩١٨"، انتهت معها الزعامة الفعلية لـــ"أوربا" ..

ويومئذ، أخذت تركتها، وميراثها ينتقلان فى تــدرُّج

وأناة إلى أمريكا بنظامها الرأسمالى.. وروسيا، بنظامـــــها الاشتراكى..

ونستطيع أن نقول: إن أمريكا ورثت "أوربا" ..

وإن روسيا ورثت"نقيض أوربا" ..

أى أن أمريكا أخذت النظام الاقتصادى الرأسمـــــالى الذى كان قائمًا فيها بالفعل حتى قبل أن ترث "أوربا" ثم صارت به فى امتداد صاعد ..

وأما روسيا، فأخذت من هذا النظام نقيضَه المتفــوق عليه..

وإذا أخذنا، فى تجوُّز، بنظرية الديالكتيك، قلنـــا: إن أوربا قدّمت لعصرنا الحديث الشىء ونقيضه .

والشئ، ونقيضه ـ يعملان اليوم على صعيد المرحلـة التاريخية الماثلة.. وسيُثمران معاً النتيجــة المركبــة الــتى ستتضمن خير ما فى الشىء وخير ما فى نقيضه .

والشىء هنا ـ هو الرأسماليــة، بكــل فلسفاتـــــها ونظمها..

ونقيضه ـ هو الاشتراكية، بكل نظمها وفلسفاتها..

وفى كل مجالات الطبيعة نجد الأشياء، وأضدادها تعمل معاً وتتفاعل معًا لأداء غرض واحد هو: استمرار الحياة، والكشف عن إمكانياتها الوافدة الواعدة.. دون أن ينشب بينها قتال..

فلماذا لا يقوم. فى المجال الاجتماعى"نفس التعاون بين الشىء ونقيضه.. بين الرأسمالية، والاشتراكية.."

ولماذا لا يكون لنا ـ نحن البشر ـ دورنا فى دَعم هذا التعاون وتقبُّل قوانينه..؟

لستُ أدرى مدى ما فى وجهة نظرى هذه من خطأ محتمل.. ولكنى أحسب أن فيها بصيصًا قويمًا من صواب، يمكن أن يكبر وينمو بما يُضيفه إليه القارئ من تفكيره وذكائه.

وأحسب كذلك أنّ من ضرورات الإخاء البشرى، والسلام العالمى، أن تدرك الرأسمالية، والشيوعية، أنهما

يصنعان معاً مصيراً إنسانيًا واحدًا..

ولن تكون لأحداهما الغلبة ـ حين تنسحب الأخرى من الميدان ـ ..بل ستكون الغلبة للتقدم الإنسانى قاطبـة، وللقافلة البشرية بأسرها.

إن حركة التاريخ تقرر دائما، وتختار النهج المُلائـم لسير التقدم الإنسانى.

وهُتاف كل فريق بمذهبه، وفُتُونه بنظامه، لايعنيـان خِداع هذه الحركة الذكية الواعية.. فـهى ماضيـة إلى البشرية كلها. لا تُحابى، ولا تتملق .

ونقد كل من المذهبين للآخر، لم يعـد يسـتوجب العداوة والحقد، والحرب .

كما أن أى نقـد يوجـه إليـهما مـن خـارج معسكريهما، يجب أن يجد فرصته فى الإفصاح والتعبـير.. سيما وكل مذهب يريد أن يكون الرائد للتقدم الإنسانى، ويزعم أنه على ذلك قدير.. فلا أقلَّ إذن من أن يسـمح للذين سيمضون وراءه أن يُناقشوه، ويتأكدوا من جدارته

وصلاحيته .

ولقد قام من أقطاب الرأسمالية نفسها من وجَّه إليها النقد المرير.. وطالب بتطويرها ..

ذلكم هو"أريك جونستون"، وهو من كبار الشخصيات الأمريكية التي تعتز أمريكا بتفكيرها، وجهودها والمنادى بفلسفة جديدة لرأسمالية ديمقراطية..

ففى الحفل الذى أقيم تكريما له لمناسبة انتهاء مدته كرئيس للغرفة التجارية الأمريكية. قال بالحرف الواحد :

"إن تعريف الرأسمالية فى المعجم، أصبح ميتا "

" كالحيوانات المنقرضة . . . ."

"الرأسمالية: حشد رأس المال.. الرأسمالية: نفوذ . ."

"رأس المال، متى انحصر فى أيدى رجال قلائل . "

"وقد عاش رجال الأعمال أمدا طويلا فى ظلال "

" هذا التعريف، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من "

"عهود السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين . ."

"أما الآن.. فتقلبوا أنظاركم فى أرجاء الأرض ؛ "

"تروا مــا تمّ فيها . لقد زالت الرأسمالية القديمة ، "

" أو كادت . . . . "

"صُفيِّت فى روسيا . . وهى فى حشرجة الموت . . "

"فى أوربا . . وتكاد تختنق فى بريطانيا . . . . "

"ولقدكانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة "

"ودراسة .. وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى "

"أقطار الأرض فرأيت مصرع الرأسمالية بعينى رأسى "

"وقد اقتضانى عملى أيضاً أن أتجوّل فى أمريكا مرارا "

"لا حصر لها..! فخرجت من رحلاتى كلها بــهذه"

"العبرة: إما أن نُساير المبادئ الحــرة وإما أن . . . "

"نواجه خطر الانقراض.. هذا هو ناموس الحياة : "

"المسايرة .. أو الانقراض . . . .!! "

* * *

كذلك قامت الشيوعية بنقد نفسها، نقــدا عمليــا تجلّى فى التعديلات الكثيرة التى كانت الماركسية تخضــع لها على ضوء التطبيق العملى فى أول حقل لهــا، وهــو

روسيا..

كما أن المآخذ التى أدان بها "خروشوف" سلفه الرفيق "ستالين"، كانت فى جوهرها اعترافا ضمنيا بوجود نقاط ضعف فى النظام نفسه تحتاج إلى تصويب وتقويم.

ولقد نَشر كاتب أمريكى كبير كتابا بعنوان "قضية السلام" ونُشر ملخص كامل له باللغة العربية ..

وعلى الرغم من أننا لانوافق المؤلف فى بعض النقاط، إلا أنه ـ فى مجموعه ـ يمثل وجهة النظر التى نقررها هنا. وهى أن المذهبين قادران على أن يعيشا معاً عيشًا حميدًا.. وعلى أن النقد يجب أن يكون موضع حفاوتهما، إذا كانا يثقان بنفسيهما..

وقد قام المؤلف نفسه، وهو "أمرى ريفز" بمناقشة الرأسمالية، والشيوعية .

وعلى الرغم من أنه أمريكى، ولا يؤمن بالشيوعية، فقد قال قولا فيه كثير من الاعتدال، والحكمة .

قال تحت عنوان "إخفاق الرأسمالية "

"كانت الــــرأسمالية هى الفلسفة الاقتصادية السائـــدة"

"عند مولد النهضة الصناعية وكانت ثورات التحرير "

"السياسية قد حققت غاياتــــها فى بداية القرن التاسع

عشر"

"وكان مـــن الطبيعى أن تصبح المُثُل العليا السياسيـــة "

"التى انتـــصرت، هى المبادئ الأساسيـــة الســـائـــدة"

"فى ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة فى فاتـــحـــة "

"العصر الصناعى وهكذا ســـارت حرية الاجتهـــاد، "

"وحرية التجارة، وحرية المنافسة جنبـــا إلى جنـــب "

"مع الحرية السياسية . . . . "

"على أن الاقتصـــاديين من دعاة الـــحـــرية المطلقـــة "

"للاجتهاد، عجـــزوا عن أن يدركوا أن الحريـــة فى "

"الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكـــون مطلقة، إلا "

"إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفــــراد "

"وإلا إذا ألغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن "

"يبدأ من البداية ـ الأمـــر الذى ليس ممكننا ـ . . . ."
"ومن الجلى أن النظـــام الموجـــود الآن فى الـــدول "
"الرأسمالية ، لايمكن أن يُسَمـــى ـ اجتهادا حرا مع "
"احتكار كثير من الصنـــاعـــات احتكـــارا يمنـــع أن "
"توجد محاولات جديدة . . . . "
"ومن أجل هذا، خَلقت الحـــالة الصناعية الحـــديثة "
"ثروات لا تتطاول إليها الأحلام للأقوياء من الوجهة "
"الاقتصادية، وفقرا ونقصا فى الحرية للملايين الذين "
"صار عملهم مجرد سلعة . . . . !! "

* * *

ويقول المؤلف نفســـه تحـــت عنـــوان "إخفـــاق الاشتراكية":

"كان المثاليون الذين يؤمنون بالمجتمع الجامع مقتنعين "
" بأنه متى تمّ تـــحويل ملكية الأرض ووســـائـــل "
"الإنتاج من الأفـــراد إلى الدولة؛ فـــإن المســـاواة "
"الاجتماعية تتحقق، فيوجد مجتمع جديـــد سعيـــد "

"يعيش فى رَغد . . . . "
"علَى أنه تبين بعد سنـــوات قليلة من قيام الثـــورة "
"الشيوعيـــة أن المســـاواة الاجتماعية والاقتصـــادية "
"لاتتفق مع طبيعة الإنســـان " ! " فإن الاجتـــهاد "
"الخاص لازم للتقدم ، ولا مَعدَى عن مقـــدار من "
"المِلكية كنتيجة للحرية الإنسانية وقد ظلّت الأمـــة "
"الروسية عشرين عاما تعمل بهمة وإخلاص فى سبيل "
"إحراز قـــوة صناعية عظيمـــة ، وإنتاج الأسلحـــة "
"اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هُـــوجمت ولكـــن "
"مستوى المعيشة ظل منخفضا جدا على الرغم من "
"أرقام الإنتاج الضخمة وقد اضطر الشعب السوفيتى "
"أن ينـــزل عن حريته الفـــردية، وعن كل أمـــل فى"
"حياة رغيدة قريبة، وفى إنتاج سلع الاستهلاك التى "
"يحتاجها ليتسنَّى له قصر جهوده على صناعة مـــواد "
"الحرب.. وقد أثبت الهجوم الألمانى على روسيـــا فى "
" يونيو عام ـ ١٩٤١ـ أن الاهتمام بالصنـــاعات . . "

"الحربية كان أمراً لابد منه وجـــاء الانتـــصـــار فى "
"ستالنجراد دليلا على مبلغ نجاح هذه الخـــطـــة . . "

* * *

وبعد أن يطنب "أمرى ريفز" مؤلف "قضية الســلام" فى نقده للاشتراكية مثل إطنابه فى نقده للرأسمالية، ينتــهى إلى هذه الكلمات المعتدلة الحصيفة :

"لامحل هناك للجزم بشىء فيما يتعلــق بالنــزاع بين"
"الرأسمالية، الشيوعية فإن كلتيهما تعلن أن غايتهـــا "
"رفع المستوى المادى والثقافى للجماهيــر . . . . . ."
"أمـــا أن يكون هذا النظام، أو ذاك ـ أقـــدر على "
"إدراك هـــذه الغـــايـــة، فأمر يجب أن يتقرر بعد "
"التجربة، لا بأن يحطم كل منهما رأس الآخر . . . ."
"وإذا كان شعب معين. كالشعب السلافى تميل بـــه "
" تقاليده التى مضى عليها قرن إلى الملكية العامة ، "
"وإذا كانت شعوب أخرى، كاللاتينية والأنجلـــو . . "
"السكسونية، تميل بـــها تقاليدها إلى الملكية الخاصة "

"فإنه ليس هناك أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفة "
"من الوجود معًا، والتعاون معًا . . . ."

* * *

هذا هو الموقف الفكرى والسياسى الذى ينبغى أن يكون طابع العلاقات بين المذهبين المتنازعين .. الرأسمالية والشيوعية .

وليس من حق دُعاة المذهبين أن يَغلوا ، أو أن يُفاقِموا مشاعر الشك والتربص .

وينبغى أن يحمل كل فرد تبعاته حيال هذا الذى أسميناه "موقف نزاع" بين الرأسمالية والشيوعية .. مُدركين جميعاً أن إقرار السلم،والإخاء فى زماننا، رهن بإحراز قدرة على التسامح، والفهم، تستعلى على كل تعصب وبغضاء ..

مال ، بغير رأس ..

تحدثنا عن سير التجارة عَبر التاريخ، ورأينا كيف ارتبطت بالحروب دائمًا، حتى اصطنعت أوربا شعاراً، بل

عقيدة تقول:

"الحرب تنعش التجارة" ..

ولقد تطورت التجارة تطوراً ضاراً، حتى صارت رأسمال محتكر متسلط.. وتطورت الرأسمالية، حتى بلغت أوج امتدادها، فإذا هى استعمار وحروب ..

والناس معذورون، حين يُحمِّلون "رأس المال" المسئولية الأولى عن الحرب وتخريب عالَمهم .

فسلوك الرأسمالية لا يشجع أبدًا على الثقة بها .

إنها تخون، حتى وطنها، عندما تتعرض مصالحها للضرّ والخطر..

فى عام" ١٩٣١ "لم يكد الرأسمال البريطانى يُحس بوطأة الأزمة العالمية.. حتى وجَّه لبلده بريطانيا ضربة قاصمة..!

فقد قام أصحاب رءوس الأموال بتهريب أموالهم خارج بريطانيا، واضطرت الحكومة الانجليزية تجاه عملهم هذا، أن تقرر فصل الجنيه الاسترليني عن قاعدته

الذهبية.. فهبطت قيمته فوراً إلى ثلثى ما كان عليه ..!!

الناس معذورون؛ لأن ظواهر كثيرة تَجُبّه رأس المال بالاتهام.

• ففى الأزمة العالمية عام"١٩٣٠"، توقفت المصانع وأجدبت الحقول، وترك الفلاحون فى كل العالم محاصيلهم، أو كادوا يتركونها فى مكانها من الحقول.. لأن أثمانها حين تُباع، لا تفى بنفقات جنيها وجمعها.. وملأت البطالة والمجاعة كل البلاد.

كل الصناعات توقفت أو كادت.. ما عدا صناعة واحدة، زادت ازدهارا، تلك هى صناعة الأسلحة ..!!!

• وتعترف بريطانيا زعيمة الرأسمالية يومئذ اعترافا له قيمته فتقول فى المذكرة التى أرسلتها إلى الحكومة الأمريكية عام"١٩٣٢" بشأن ديون الحرب :

"إن الآلام التى تُعانيها البشرية لا يرجع سببها "
"إلى جحود الطبيعة ولكنه يرجع إلى خطأ النظم . ."
"التى تسير عليها . . . ."

• ويقف "هتلر" عام ١٩٣٩، فيقول فى خطاب له:

"على ألمانيا أن تُصدِّر، أو تموت " ..

ويرد عليه"هدسون" الوزير البريطانى من لندن، فيقول:

"وبريطانيا أيضا، عليها أن تُصدِّر أو تموت "..!

وهكذا أشعل التراع على التصدير والربح، أبشع حرب فى التاريخ..!

• ويحدث توافق سعيد، بين الحرب الكورية عام" ١٩٥٠" وبين الأزمة الأمريكية التى سبقت حرب كوريا وتبدو العلاقة بين الأزمة، والحرب واضحة مُبينة .

فقبيل حرب كوريا ـ كما يحدثنا كتاب "الحرب والشعوب" للأستاذ بدر السباعى ـ، هبط مستوى الإنتاج الأمريكى إلى ٢٢% ..

وزادت قيمة البضائع المخزونة، ٦٠% ..

وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية، ١١%..

وهبطت أرباح الشركات الرأسمالية، ٢٥%..

وبلغت الافلاسـات ، ٧٥% ..

ووصل عدد العمال العاطلين، ثلاثة ملايين، ونصف مليون عاطل ..

فلما نشبت الحرب الكوريـة، أخـذت الأزمـة الاقتصادية الأمريكية تنقشع، ونشرت مجلة "الولايـات المتحدة والعالم "تقول:

"إن الحرب الكورية أوجدت أوضـاعـا قادرة على"
"إبقاء الإنتاج فى مستوى رفيع . ولقد جـاءت هذه "
"الحرب فى أوانـها"! "؛ لتدفن شبح الأزمـة الذى "
"كان يرعب رجال الأعمـال الأمريكيين ، والـذى"
"أقضَّ مضاجعهم منذ نـهاية الحرب العالمية الثانية.!!"

• وبعد زيارة "خروشوف" لأمريكا مباشـرة، يعلـن مسئول أمريكى، و"سناتور" كبير:ـ

"إن وقف الحرب الباردة ، خطر على أمريكا . لأنه "
"سيسبب لتجارتها المتاعـب ، ولمصانعها التوقف ، "
"ولعمالها البطالة . . . ."

ولابد لِنُشدان السلام، فضلا عن إقراره، أن يُقـــرر مصير رأس المال أولا ..

والبشرية حتى يومها هذا، لا تستغنى عن المـــال، ولا عن التجارة ومن ثَمّ، فنحن لا ننادى بإلغائها. إنما نـنـادى بضرورة تطويعها لمبادئ التقدم الإنسانى المـــاضى نحـــو بشرية واحدة جديدة. لا استغلال فيها ولا عدوان.

أجل.. نريد مالا بغير رأس .. إن صحَّ هذا التعبير .

هل تريد الرأسمالية ، القناعة ، أم الجشع..؟

هل تريد رحمة الناس، أم هلاكهم ..؟

هل تريد تقدم البشرية، أم تخلفها وانتكاسها ..؟

إنـــها تردد دائمًا ـ أنـــها تريـــد تقـــدم النـــاس ورخاءهم وسعادتـــهم.. وحسن هذا.. وعليـــها إذن أن تبحث لنفسها عن نـــهج لا يجعل الاســـتغلال أوضـــح خصائصها، والحرب أصدق نتائجها ..!!!

إن الاعتزاز بالرأسمالية، يلوذ أكثر ما يلـــوذ بمنطـــق واحد. هو: أنـــها النظام الذى يحقق حرية الفرد.. هـــذه

الحرية اللازمة لكل نشاط إنسانى عكس الاشـــتراكية ، التى تُعلى سلطان الجماعة على كل سلطان..

ونحن نسأل: ألا يمكن أن يسود ســلطان الجماعــة سيادة مقيدة بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد ..؟؟

ونجيب: بلى، يمكن هذا. وهو ما نريد أن يسير عليه النشاط الاقتصادى دوما ..

ثم أين حرية الفرد فى الرأسمالية ما دامت تعتمــد فى ازدهارها، على المنافسة غير المشروعة.. وعلى الاستغلال والحرب..؟؟

هل تُبقى المنافسة الظالمة. والاستغلال، والحـــرب، حرية للناس ..؟

بل أين "حرية التجارة" نفسها، وهى أهم ممـــيزات الرأسمالية وأبرز خصائصها ..؟

لقد انتهت التجارة، يوم قامت الحواجز الجمركيــة، والحماية الجمركية.. وأمسى نظام الاقتصاد الحر غير ذى موضوع..!

تماما، كما انتهت حرية الفرد حتى داخل الدول الرأسمالية نفسها يوم قامت التكتلات الكبيرة من أصحاب الصناعات الكبرى والرأسمال المكتنز ..

إن تفادى المصاير المظلمة التى تُسببها الرأسمالية المحتكرة يبدأ من نقطة هامة كل الأهمية. ألا وهى: تجريد رأس المال من سلطانه ومن حقوق السيادة التى انتحلها لنفسه .

وهذا العمل، لا يُناط بأمريكا. ولا يُناط بروسيا، ولا بأية دولة من الدول مهما يكن شأنها.. إنما يُناط تنفيذه بهيئة الأمم المتحدة رأسا .

أما كيف يكون ذلك.. فنرجو أن نتحدث عنه ، بعد فراغنا من النقطتين التاليتين ..

* * *

ميثاق الإنسان ..

كما أن تجريد رأس المال من سلطانه، أمر محتوم لبناء عالمنا الواحد.. كذلك إلغاء الأحلاف ، أمر أكثر حتمية.

فالأحلاف، كما تبينا من قبل، إنما يراد بها حماية مصالح خاصة للدول المتحالفة.. كما أنها كالخطايا: تنادى بعضها بعضا .. وبالتالى تمزق أواصر الإخاء والوحدة ، بما تشيعه فى صفوف العالم من تكتلات متنابذة ..

ومن التناقض الشاذ الذى تنطوى عليه علاقات عالمنا. أن تقوم "هيئة أمم"لها الكلمة العليا كما هو مفروض.. ثم تقوم أحلاف فى كل مكان من الأرض بدافع التربص والإعداد للمغامرة البشعة الكبرى ..!

لابد للبشرية أن تحتفل فى يوم قريب بحرق جميع وثائق تلك الأحلاف .. من حلف الأطلسى ، إلى حلف وارسو ..

وما كان قبلهما، وما جاء بعدهما من أحلاف ..!

ولقد أعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لإلغاء"حلف وارسو" فور إلغاء حلف الأطلسى ..

وما ينبغى أن يكون أقطاب الأطلسى أقلّ حرصا

على السلام.. هذا السلام الــــذى يتطلــب وأد كـــل الأحلاف.. وإنــهاض حلف واحد وميثاق واحد.. هـو ميثاق الإنسان .!

قد يشق إلغاء الأحلاف على الدول التى تستمد مـن الأحلاف طمأنينتها ..

ولكن لتعلم ، بل لتستيقن أنها طمأنينة كاذبة، تلــك التى تنتظرها من سياسة الأحلاف ..

فى يوم"٣٠" أكتوبر عام ١٩٤٣، هَوَت أفئدة الناس إلى "موسكو"حيث كان"مولوتــوف" ممثــلا لروســيا. و"هل" ممثلا لأمريكا.و"إيدن" ممثلا لبريطانيا" و"فو" ممثلا للصين .. يوقعون وثيقة من الوثائق الطيبة يقولون فيها :

"إن المجتمعين يدركون الضرورة الداعية إلى ـ هيئة"
"دولية عامة ـ تعمل على استتباب السلام، والأمن"
"بين الدول . . . ."

ولقد قامت بعد هيئة الأمم المتحــدة.. فلمــاذا لم يصادفها التوقير الواجب، ولماذا لم تحظ بالثقة التى تغــنى

عن التماس أحلاف وتكتلات تشلّ عملها، وتضائل مـــن قدرتـــها ..؟؟

هناك عامل له أهميته، وخطره ، هو المســـئول الأول عن هذا..؟؟

ألا وإنه التقوقع داخل الحـــدود الخاصـــة، وإربـــاء الشعور القومى على الحسّ الإنسانى؛ والعالمى ..

كل دولة تنشد أهدافها الخاصة، وتفكـــر لنفســـها وتشعر بذاتها وحدها ..

وهى بالتالى لا تستطيع أن تقف وحدها لتحقيـــق أغراضها..

وعندئذ تلتمس لها حليفا، أو حلفاء ..

أما حين تنشد الدول أهدافا عامة تقوم على المبـــادئ الإنسانية العامة.. وحين تعيش كل دولة بإحساس إنسانى عميم؛ فيومئذ يتأتى لها جميعًا وبصورة تلقائية، توقير هيئة الأمم، والثقة بـــها والاعتماد عليها .

إن مغادرة الأنانية، والتفوق على الذاتية، بالنســـبة

للشعوب وللحكومات ـ ضروريان لإقرار سلام صحيح وبناء إخاء وثيق.

ولابد من أن تقوم الثقافات جميعاً على هذا الأساس من اليوم ..

ولابد من أن تشيع بكل وسائل التثقيف، والمعرفة والدعوة، كلمة "إنسان" وكلمة "عالمنا"

عالم بلا أرباب ..

وكل جهد يُبذل لإدراك الخير الإنسانى المشترك مقضى عليه بالحُبوط؛ ما دام على الأرض أرباب يتمسكون بربوبيتهم ..

هؤلاء الأرباب، الذين ناقشنا وجودهم التاريخى والسياسى فى فصل سابق، والذين رأينا همتهم العالية"!" فى تخريب العالم، وتدمير أمنه عَبر التاريخ .

لقد رأينا، كيف كان هناك دائما فى تاريخنا السياسى"ما يسمى بالدول الكبرى "..

كانوا مرة"الأربعة الكبار".. ومرة أخرى "الثلاثة الكبار" ومرة ثالثة "الخمسة الكبار" ..

ومن مؤتمر فيينا.. فى بداية القرن التاسع عشر، إلى أيامنا هذه، وكلمة"كبار" اصطلاح سياسى، يحكى وضعا"طَبقيا" فى العلاقات الدولية للعالَم ..

وهذا النظام الطبقى.فى الأوضاع السياسية،يجب أن ينتهى.

لقد قلنا:إننا لا نتجاهل الفوارق الحضارية بين أمة وأخرى..

وقلنا: إن هذه الفوارق تجعل بعض الأمم أبهى مكانا، وأرفع شأنا من غيرها..

لكن ذلك مختلف اختلافا تاما عن التمايز الذى تصوره نظرية "الدول الكبرى" القائمة اليوم . والتى قامت بالأمس".

فالمفهوم السياسى للدول الكبرى، يعنى أن العالم كله تحت وصاية مجموعة من الدول تفوقت صناعيا،

وعسكريا.

وهذا الوضع لا يهدم مبدأ من أسمى المبادئ الإنسانية وهو "الديمقراطية" فحسب... بل إنه كان عَبر التـــاريخ من أهم أسباب الاستعمار ، والحرب ..

فجميع المؤتمرات التي شهدها تاريخنا السياسى منـــذ هزيمة نابليون إلى اليـــوم.. كـــانت مرتعـــا لأطمـــاع الكبار..ولو كانت مؤتمرات دولية بـــالمعنى الصحيـــح.. أعضاؤها الشعوب، لا الحكومات، وغرضـــــها صـــالح الشعوب ، لا الدول.. لنجت البشرية مـــن آلام كثـــيرة سببتها "الثروات الكبيرة" ..!

إن وجود نظام عالمى يسمح بقيـــام"دول كـــبرى" و"دول صغرى"، معناه أننا نعيش فى مظاهر تقدم خـــادع موهوم ..

فأى فارق بين "دول كبرى"تحمى من يلوذ بها مـــن الأمم الصغرىاليوم.. وبين أمراء الإقطاع الذين قـــاموا ليحموا من يلـــوذ بـــهم من ضعفاء النـــاس بـــالأمس

البعيد..؟؟

إن وضع"الدول الكبرى" يشبه تماما وضع "أمراء الإقطاع" الذين سادوا وسيطروا غَداة القرن العاشر الميلادى ..!

فلقد كانت"السلطة العليا" فى أيدى أولئك الأمراء..

تماما ـ كما أن"السلطة العليا" اليوم فى أيدى الدول الكبرى..

وكان توزيع هذه السلطة، مما يبعث على الريبة والمنافسة، وعلى الخوف من فقدانها؛ فتقوم الحروب..

تماما، كما يحدث اليوم فى علاقات الدول الكبرى بعضها ببعض..

وكان المثل القائل"تغدَّ به، قبل أن يتعشى بك" هو قانون العلاقات بين الأمراء ..

وهو اليوم نفس القاعدة، فى علاقات الدول الكبرى.. ولولا التقدم العلمى الباهر الذى زلزل نوايا الحرب، وألقى فى أفئدة الدول الكبرى فزعا كبيرا، لكنا

قد شهدنا تبادل الغذاء، والعشاء بينها فى صورة فناء واسع النطاق..!

أفمن أجل هذا، كان جهاد البشرية طوال القرون..؟

وهل ثمة أمل ـ أدنى أمل ـ فى كنس الاستعمار الوقح من عالمنا، وهناك دول كبرى، تحمل رواسب الغزو كلها، ورواسب الضلال كلها..؟؟

أليست المأساة الإنسانية الكبرى التى تُمثل اليوم فى الجزائر، ثمرة إصرار دولة مغرورة على أن تظل إحدى الدول الكبرى..؟

إن هناك"هيئة أمم" قائمة.. ولها رغم نقاط ضعفها ـكلمة مسموعة ، وجهود فعالة.. فهل استطاعت أن تكفَّ الدم المراق فى الجزائر عن الجريان..؟

هل استطاعت أن توقف حربًا عدوانية مجرمة.. أجل مجرمة وأكثر من مجرمة.. هى حرب فرنسا فى الجزائر..؟

هل استطاعت أن تحول بين فرنسا، وبين شعب كل

ذنبه أنه يريد أن يعيش كما يعيش سكان أى شارع ـ بل أى زقاق فى باريس، أو لندن، أو واشنطن.. أحراراً آمنين..؟؟

لم تستطع "هيئة الأمم المتحدة" للأسف المرير وقف تلك الحرب الظالمة...

لماذا..؟ لأن التى تمارسها،"دولة كبرى" وتناصرها "دول كبرى" أخرى .

كيف تُلغى نظام الدول الكبرى..؟ كيف نُهشم هذه الربوبية الكاذبة فى الأرض ، وكيف نذروها مع الريح..؟

هذا ينقلنا إلى النقطة التالية ..

* * *

هيئة الأمم المتحدة :

إن هذه المنظمة العالمية، التى شكلناها غداة الحرب العالمية الثانية والتى استهلت ميثاقها قائلة "نحن العالم"..

هذه المنظمة ، تُمثل أذكى وأقوم تجاربنا الإنسانية ..

ولكنها كأى مغنم من مغانمنا، ومكسب من مكاسب تقدمنا ـ مهددة بالتفسخ والاندحار، مالم نبذل فى سبيلها من ذات أنفسنا، كل ما يطلبه بقاؤها، واستمرارها، وتفوقها ـ من إيثار، وولاء، وتضحية ..

ولقد كانت"هيئة الأمم"تتوقع منا البرّ، لا العقوق.. وكانت تنتظر أن نمنحها من الولاء أكثر مما نمنح أُمَمَنا، ودُوَلنا، وأنفسنا.

وكان هذا هو الطبيعى؛ لأن الولاء الذى نمنحه إياها، إنما نمنحه فى الحقيقة لأنفسنا.. فهيئة الأمم هى: نحن.. هى أوطاننا، وحكوماتنا، وشعوبنا.. هى عالمنا فى أرقى مراحل تطوره الماثل.

وإن الولاء الإنسانى لهيئة الأمم، لهو الدم الذى يملأ شرايينها بالحياة.. فإذا حَرَمناها ذلك الدم، فأنى لها البقاء.؟

لنتصور دافعى الضرائب فى أيه دولة، امتنعوا عن دفعها، ولنتصور مُواطنى هذه الدولة، وقد تكتلوا جميعاً

فى حركة تمرد ظافر ضد دولتهم.. أتستطيع هذه الدولــة أن تمارس حقوق سيادتـــها ..؟

إن جميع الأمم، وجميع الحكومات والدول، مواطنون فى نطاق هذه المنظمة العالميــة..وإن أى تمـــرد ترتكبـــه حكومة أو دولة فىعالمنا كله، يُعطل الهيئة عن ممارســـة سيادتـــها، وعن أداء رسالتها.

إذن ،فطبيعة العلاقات بين المواطنين فى أمة، وبـــين دولتهم كاملة الشبه والتماثل، بطبيعة العلاقات بين الأمم كلها، وهيئة الأمم التى تمثل دولتهم العليا ..

وهذا يقودنا إلى التنبيه على مسألة هامة .

فطبيعة العلاقات بين الناس ودولتهم تقوم على الثقـة المتبادلة..وهذه الثقة لاتباع ، فَتُشترى.. إنما هى ثمرة قيام كل بواجبه ..وأول واجبات الدولـــة تحقيـــق التكـــافؤ والمساواة، والعدل بين مواطنيها جميعًا..

وحين يختل هذا الميزان فى يدها. وتضطرب مصـــاير الناس بين يديها، تبدأ متاعبها، ويهبّ المواطنون لقلبـــها

والتخلص منها.. وحتى إذا لم يستطيعوا ذلك، نجدهـــم يعاملونـــها بغير اكتراث وبغير احترام ..

وهذا هو الذى يحدث تماما بالنسبة للعلاقات بـــين الأمم، وهيئة الأمم ..

فالعلاقات بينهما، يجب أن تقوم على ثقة متبادلـــة، تثمرها صيانة الهيئة لجميع حقوق مواطنيها الذين هـــم، أمم العالم وشعوبه..

فإذا أخلّت الهيئة بواجبها حيال هذه الحقوق، فـــإن التمرد عليها واقع لا مفر منـــه.. وعدم الاكتراث بـــها يصير أمرا محتوما..

وهذا هو الذى حدث لـــ"عصبة الأمم" فأودَى بها وجعلها أحدوثة ومَثَلا..

ولكن، ما هى الاعتبارات التى يمكن أن تصدَّ"هيئـــة الأمم" عن رعاية مواطنيها ..؟

أهى الأنانية، ورعاية المصلحة القومية الخاصة ..؟

إن هيئة الأمم ليست مؤسسة قومية.. بل عالميـــة..

وأعضاؤها، شعوب العالم، فالإحساس هنا عالمى لا قومى.. أو هذا على الأقل ما يجب أن يكون ..

إذن، فالقوى التى تحمل الهيئة على التخلى عن التزاماتها لن تكون إلا دخيلة عليها، وإنها لكذلك فعلا.

وهذه القوى، هى التى سردناها من قبل :

- رأس المال، الذى يعمل اليوم فى نشاط جماعى عالمى..
- الأحلاف التى تقوم على تقسيم العالم .
- السيادة والنفوذ القوميين، اللذين تفرضهما دول كبرى.

والعلاج بعد هذا يسير إذا أرادت البشرية، وإذا هبَّت لتحقيق ماتريد.

العلاج ـ أن نعزل القوى الثلاث السالفة عن مراكز وثوبها.. وأن نضعها جميعا فى يد هيئة الأمم.

إن الحديث عن حكومة عالمية واحدة، لم يعد خرافة

ولاوهما والحكومة العالمية، مقبلة لاريب فيها، مثلما أن ضُحَى الغد مُقبل وآت ..

وليس معنى عدم توافر الظروف التى تسمح اليوم بقيام هذه الحكومة ـ أن نكف عن السعى المشترك لتهيئة تلك الظروف .

فإذا أردنا ـ ولا خيار لنا فى ألا نريد ـ فأمامنا الآن أعظم الفرص التى تفضى بنا إليها.. ألا وهى دعم هيئة الأمم.. وطننا الأكبر، وملاذنا الأخير ..

ونحن من جانبنا نرى أنه لابد من أن ننقل إلى اختصاص الهيئة هذه القوى الثلاث :

- السياسة الخارجية ..
- العلاقات الاقتصادية ..
- العلاقات العلمية، والثقافية ..

أما السياسة الخارجية، فلابد من التنازل عنها لهيئة الأمم تنازلا كليًا. ونقل اختصاصات وزارات الخارجية فى العالم كله إليها .

وذلك يقتضى إلغاء وزارات الخارجية، أو تحويلها إلى وزارات تنفيذية لا غير..

إن التضارب بين السياسات الخارجية للدول، وما تعتمد عليه من مناورات ومؤامرات، يقف وراء كل كارثة تنزل بالناس..ولابد لهذا، أن تكون للعالم سياسة واحدة تقوم على تنسيق أوضاعه وتحرى سلامته ..

أما"العلاقات الاقتصادية" فيكون إشراف الهيئة عليها إشراف الحَكَم فى مباراة نظيفة.. فهو يرصد نتائجها فى أمانة، ويمنع اللاعبين فى كلا الفريقين من خرق النظام الموضوع ..

وإشراف الهيئة على الاقتصاد الرأسمالى، سيعنى زجره عن الاحتكارات الضارة. وعن الاستعمار جرياً وراء الأسواق أو المواد الخام.. كما يعنى تنسيق علاقاته الداخلية بحيث لاينجم عنه ظلم واستغلال .

وإشرافها على الاقتصاد الشيوعى، يعنى إعطاءه بوصفه نظامًا جديدًا فرصة التجربة ويعنى زجره عن كل

كبت وإرهاق.. وإشرافها عليهما معًا على النحو المذكور لن يعنى إلغاء أحدهما، بل يعنى إلغاء ظروف التصادم بينهما.. ويعنى تمكين قانون الاختيار التاريخى من الأخذ بأصلحهما .

أما العلاقات العلمية والثقافية، فينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها أكثر من العلاقات الاقتصادية، لأنها لاتحمل الحساسية التى تحملها الأولى .

ينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها كليا ـ مثل السياسة الخارجية تماما..مع إتاحة الفرصة لكل الأفكار لكى تخاطب الناس.. وإتاحة الفرصة للناس، كى يعرفوا كل سَبق علمى، حتى تصبح المعرفة عونا لنا على التقدم.. لاسلاحا جديدًا من أسلحة التفوق الأنانى والغلبة الذاتية للمذهبين الاقتصاديين السائدين ـ الرأسمالية، والاشتركية ..

وهذا الإشراف الذى ننادى به، يُمثل سببًا ونتيجة فى نفس الوقت .

هو"سبب" لأنه سيعجل بظروف الإخاء البشــرى ويجعل من السلام حقيقة وواقعاً ومستقبلا .

وهو "نتيجة" بمعنى أنه لابد أن تسـبقه مقدمـات تضمن سلامته، وتؤمِّن حياة البشرية فى ظله. والسـبب والنتيجة هنا يندمجان ويتفاعلان فإشراف هيئة الأمم علـى السياسة الخارجية لدول العالم، وعلى النشاط الاقتصـادى والثقافى رهن بعزل نفوذ الدول الكبرى بادئ بدء عـن الهيئة.. وهو فى نفس الوقت الطريق الوحيد، لعزل هـذا النفوذ عنها ..

وإذا، اتحدت النتيجة والسبب فى أمر ما على هـذا النحو؛ فقد بلغ هذا الأمر من الضرورة الحدّ الذى يجعـل التخلِّى عنه سفاهة وانتحارا .

أما كيف ننقل اختصاص دول العالم فى السياسـة، وفى الاقتصاد وفى الثقافة إلى هيئة الأمم، فيمكن أن ينظم ذلك لجان من الخبراء والعارفين .

قد يقال: إن فى هيئة الأمم شُعُبًا، للاقتصاد، وللثقافة

وغيرهما، ولكن الوضع مختلف كل الاختلاف عما ننادى به..

إننا نريد ألا تكون لأية دولة سيادة على سياستها الخارجية.

ونريد أن تخضع خططنا الثقافية، لإشراف عالمى؛ لأن تنوع الأهواء والمصالح المناطة بالسياسة وبالاقتصاد وبالثقافة هو الذى يخلق التصادم والنزاع .

ولنلاحظ جيدًا ـ أننا نقول "تنوع الأهواء والمصالح" فالثقافة مثلا ستظل محتفظة بتنوعها. بعد أن ينفى إشراف الهيئة عليها الضراوة وأغراض الدعاية ..

وفى التنظيم الداخلى لهذا الإشراف ستُراعَى ـ مؤقتًا ـ جميع الفروق الطبيعية القائمة.. وسيظل مجال التنافس المشروع قائما بين النظم الاقتصادية والاتجاهات الثقافية.

وكل ما هناك أن هذا التنافس سيقوم يومئذ لاعلى أساس من أغراض الدولة،ومآربها الخاصة.. وإنما على أساس الأهلية الذاتية والموهبة الحقيقية لكل من النظم

الاقتصادية، والاتجاهات الثقافية..

نحن نعلم أن التطور الداخلى لكل أمة من الأمـــم، ضرورى لبناء عالم جديد عظيم.

ولكننا نعلم كذلك أن هذا التطور الداخلى، ينبغـى أن يسير وفق مبادئ إنسانية كبرى وشـــاملة، مادمنـا صائرين إلى عالم واحد فعلا.

وإذا ما اجتازت"هيئة الأمم" هذه التجربة بنجـــاح وتوفيق، فإن الطريق يومئذ، سينفسح أمامها، فتشـــرف على القانون حتى توحده، وعلى البوليس، حتى يعيـــش الناس داخل بلادهم فى أمن أكثر، وطمأنينة أوفى .

* * *

وعلى العالم ألا ينخدع بمحاولات التجمع التى تقوم الآن، زاعمة أنـــها طريق إلى تجمـــع أوســع ينتظـــم البشرية كلها، وزاعمة أنـــها تتم وفـــق ميثـــاق الأمـــم المتحدة.. فما أكثر ما ينطوى عليه هذا الزعم من كذب.

وأمامنا مثل واضح، هو:"السوق الأوربية"..

لقد كان من الممكن أن تكون هذه السوق محاولة طيبة، ونموذجا لما ندعو إليه.. لكن لأنها تمت لحساب مصالح إقليمية لاعالمية، فقد باءت بكثير من الأوزار.

إن هذه السوق لم تقم لتقريب شقة الخلاف بين جهود اقتصادية مسالمة بريئة، تريد أن تعيش، وتدع غيرها يعيش.. بل قامت لحماية مصالح دول توشك على الضياع، ويوشك نفوذها الاستعمارى على الاندحار..

ففى المعاهدة المبرمة بين الدول الأوربية المشتركة فى هذه السوق، عزم على"نشر سياسة الاستعمار العامة فى السوق، سيما المناطق المتخلفة اقتصاديا فى شمال افريقيا وباقى مستعمرات الدول الأعضاء "..!

ما علاقة شمال أفريقيا بأوربا ..؟

إنه الاستعمار ينادى بعضه بعضا، ويشد بعضه أزرَ بعض لِيواصل القدرة على بسط نفوذه.

فهذه السوق إذن، تهدف إلى الاحتفاظ بمستعمرات الدول المشتركة فيها، وبعد أن أوشكت على الإفلات

منها.

ولعل أوضح برهان على هــذا تخصيـص الـدول المشتركة فى السوق مبلغ"١٨١" مليونا من الـدولارات لاستثمارها فى مستعمراتها خلال المرحلـة الأولى مـن مراحل الاستثمار ومدتـها خمس سنوات.

وقد قامت بتوزيع الملايين المذكورة على مستعمرات فرنسا وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا ..

* * *

هناك تجمُّع واحد لاغير، هو الذى يضمن سلامتنا ـ ذلكم هو تجمع البشرية كلها، من أجل أهدافها مجتمعـة، ومن أجل مستقبلها مُوَحَّدا ..

أما تلك الجيوب التى تقام فى أرجاء عالمنا، متنـافرة متنابذة فهى عامل تمزق وتصدع.. أكثر مما هى عـامل توحيد وتجمع..

والتسويات الخاصة، مصدر قلق دائم.. ولابد مـن تسوية عامة لكل المشاكل الرئيسية فى عالمنا.. وليس أحد

بقادر على مثل هذه التسوية سوى هيئة الأمم حين تتمتع بسلطانـــها المشروع كاملا.

عند ما قام التناوُش بين الصين والهند، أثناء زيـــارة "خروشوف" لأمريكا ـ تفاءلت بهذا التناوُش كثيرًا..

وقلت لنفسى: لقد جاءت هذه الحركة فى أوانـــها ـ لنعلم تمامًا أن الخلاف بين أمريكا، وروســـيا ـ ليـــس وحده مصدر الخطر لعالمنا.. وإنما هناك مواطن خـــلاف أخرى وكثيرة، يمكن أن تجىء منها أخطار أكيدة.. بـــل ويمكن أن تسبب حرباً ودمارًا..

من أجل هذا؛ فمواطن الخلاف والـــتراع جميعـــها، يجب أن تُواجَه وتعالج .

وذلك يقتضى أن تعيش "هيئة الأمم" أياماً تاريخيـــة كبرى تنجز فيها مايلى :

• إبطال كافة الأوضاع الاستعمارية، وتحرير جميـــع الأمم .. والجزُر، والقواعد من مستعمريها .

• إرجاع جميع الحقوق المغتصبة إلى أهلها، ويبـــدأ

هذا بأهل فلسطين.

• تصحيح الوضع الدولى لكل الأمم، ويبدأ هذا التصحيح بفتح أبواب الهيئة لستمائة مليون صينى .!

• إلغاء جميع الأحلاف القائمة،وتحريم قيام أحلاف جديدة.

• تعديل ميثاق الأمم المتحدة، ومجلس الأمن تعديلا ينفى كل احتمال للتأثير على هاتين المنظمتين .

• تنظيم عمليات الإشراف الفعلى، والتام على السياسة الخارجية لكل الدول وكذلك الثقافة الإنسانية، ثم الاقتصاد العالمى، تنظيما لايعنى دَمج نُظُمه فى اتجاه واحد.. وإنما يعنى تنسيق جهودها الحرّة تنسيقا يكفل إبعادها عن الشحناء، وإكسابها قوة أكثر ، للعمل من أجل الإنسان.

• حراسة المبادئ الرشيدة التى ينبغى أن يسير التطور الداخلى للأمم، والتطور العام للإنسانية وفقها. وعلى رأسها الاحترام المطلق للحرية الإنسانية، والاستجابة

التامة لكل مطالب المصير الإنسانى .

* * *

وبعد.. فقد قُلنا كلمات نحسبها مجدية .. ونادينا بأمور، الحاجة إليها بالغة .

وأكاد أبصر القارئ، وهو يتململ متسائلا: ونزع السلاح لماذا لم تحدثنا عن نزع السلاح ..؟؟!

وللقارئ العزيز أقول: لقد نزعنا السلاح فعلا بما قدمنا من مقترحات، حتى لو لم يرد فيها ذكر ـ أيّ ذكر ـ لنزع السلاح.!

فالأسلحة، إنما تُصنع، وتشرع من أجل المآرب الخاصة للدول.. فإذا حولنا هذه المآرب الذاتية. إلى مآرب إنسانية؛ فقد التسلح كل مبرراته ومُسوغاته ..

إن تطهير المَصبِّ لايُجدى فتيلا، مادام المنبع نفسه يعج بالأقذار

وأذكى وسيلة لتطهير المصب، هى تطهير المنبع أولا..

وقُوى السياسة، والمال ، والمعرفة ـ هى المنابع الــتى يبدأ بتطهيرها وتطويعها لأغراض التقدم الإنسانى، عملنـا وكفاحنا .

وهذا لايمنع أبدا مضاعفة الجهود التى تُبــذل اليــوم لتحريم الأسلحة، وتسريح الجيوش .

إن تبعات الرشد تنادينا إلى واجبات قــــد تكــون شاقة.. بل هى شاقة فعلا.. ولكن لنذكر أن هذه المشـقة تنطوى على أعظم فرصة مُتاحة لنا..

ولنذكر أيضًا، أنه إذا كنا نريد الحيــــاة للجميــع؛ فسبيل هذا أن يصير العالم للجميع .

تنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسَة يتخذون مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم هى منطوية على نقيضها تمامًا..

كما نبصر مواقف يَتّسِم ظاهرها بالإخلاص لحقـوق الإنسان وهى فى حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمــــع

هذه الحقوق وتضليل مَسْعاها..

إن المبادئ التي يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة، هي الجديرة اليوم بالسيادة، والذيوع، حتى يمكن الظفر بضمير سياسي جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم الحق، لا الباطل.. ويعمل في خدمة البشرية مجتمعة. لا في خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..



كتب المؤلف

١ـ من هنا نبدأ
٢ـ مواطنون .. لا رعايا
٣ ـ الديمقراطية، أبدا
٤ـ الدين للشعب
٥ـ هذا .. أو الطوفان
٦ـ لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ـ لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨ـ معا على الطريق محمد والمسيح
٩ـ إنه الإنسان
١٠ـ أفكار فى القمة
١١ـ نحن البشر
١٢ـ إنسانيات محمد
١٣ـ الوصايا العشر
١٤ـ بين يدى عمر
١٥ـ فى البدء كان الكلمة
١٦ـ كما تحدث القرآن
١٧ـ وجاء أبو بكر
١٨ـ مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ـ كما تحدث الرسول(مجلد)
٢٠ـ أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ـ رجال حول الرسول(مجلد)
٢٢ـ فى رحاب على
٢٣ـ وداعا عثمان
٢٤ـ أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ـ معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ـ عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ـ .. والموعد الله
٢٨ـ خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩ـ الدولة فى الإسلام
٣٠ـ دفاع عن الديمقراطية
٣١ـ قصتى مع الحياة
٣٢ـ لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣ـ الإسلام ينادى البشر
٣٤ـ إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥ـ قصتى مع التصوف

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة

رقم الإيداع ١٣٧٥٠ /٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5732-37-9



قال مؤلفه:

"هذه الصفحات، ثمرة خواطر مُباركة..أفاءت عليها المحبة.. وتنحّى عنها الغرض.. وتلقّت من الماضى دَرسه.. وحَمَلها إلى المستقبل شوق حميم، ورجاء مُثابر..

وكاتب هذا الكتاب يؤمن أن العالمَ قريتُه.. والبشريةَ أسرتُه.. ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنَّ على رأس واجبات الإنسان الذى أذِن الله له أن يُفكِّر، ويكتب ـ واجبًا جليلا بقدر ما هو محتوم.. واجبًا يدعوه إلى الاهتمام بمشاكل العالم، كما لو كانت مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها، والتعبير عنها بنفس الحرارة والولاء اللّذين يتناول بهما مشاكل وطنه، وذاته"..

خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣